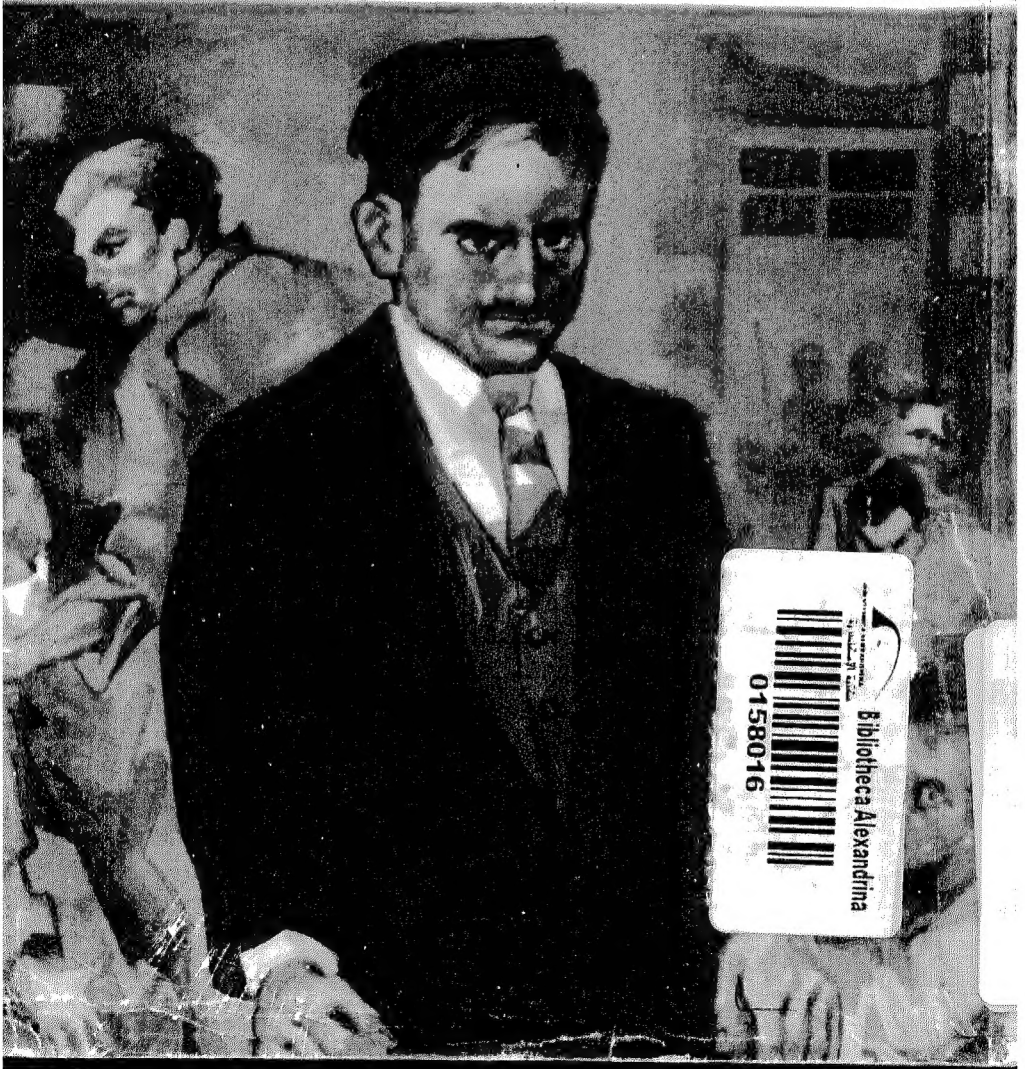


روايات (الهلال)

فتحي عنانم

حكاية توتو



اهداءات ١٩٩٩

مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) في جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفي بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولار بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحواله بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للمقارىء فى مصر

سوريا ١٨٠٠ ق . س . - لبنان ٣٥٠ ليرة - الاردن ٥٠٠ فلس - الكويت ٤٠٠ فلس - العراق ١٦٠٠ فلس - السعودية ٧ ريالات - السودان ٢٥٠ ق . - سودانيا - البحرين ١٢٠٠ فلس - الدوحة ٨ ريالات - دى ٨ دراهم - ابوظبى ٨ دراهم - مسقط ٧٥٠ بييسه - تونس ١٦٠٠ مليم - المغرب ١٥٠٠ فرنك - غزة والضفة ٧٥ سنتا - دكا ١٠٠٠ فرنك - اليمن الشمالية ١٣ ريالا - عدن ١٤٤ سنتا - الصومال ١٣٠ بنى - لاجوس ١٢٠ بنى -

فى حالة الرغبة فى الحصول على نسخ من روايات الهلال

اتصل بالتلكس : 92703 HILAL . U . N

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال

العدد ٤٦٨ ديسمبر ١٩٨٧
ربيع الثمانى ١٤٠٨ هـ
No . 468 DEC . 1987

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

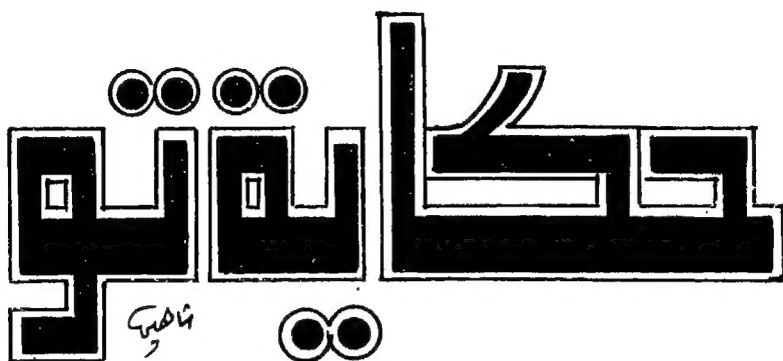
سكرتير التحرير
محمود وتاسم



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين



●
بمقام:
فتحی خانم

●
دارالهدای

الفصل الأول

لا أدري كيف بدأ اهتمامي به ، ولكنني عندما أفكر في الامر أكاد أجزم بأنني أنا الذي سعت اليه ، رغم أنني نصحت نفسي بالحد من منه ، فقد توهمت أنه قد يكون نصابا ، أو جاسوسا جاء ليتجسس علينا ، أو لعله أحد رجال المخابرات أو الباحث دخل النادي ليتتبع أخبار الاعضاء .. ومن بينهم كثيرون ، كانت لهم يوما ما علاقات بالسلطة ، واشتركوا في صراعات قديمة حولها .. ولكن رغم كل هذه الظنون ، وربما بسببها ، دفعتني غريزتي الى الاقتراب منه ، فليست الفراشة وحدها هي التي تحوم حول النار التي تحرقها .. انك تجد نفسك مندفعاً نحو هذا الذي تحذر منه أو تخشاه بقوى مجهولة اكبر واقوى من أية مقاومة يجندها العقل .

لن اذكر اسمه الحقيقي ، ولن أجهد نفسي في البحث عن اسم مستعار له ، وهو نفسه استطاع ببساطة تامة أن يجعل الجميع ينادونه باسم من حرفين ومقطع واحد ، هو « تو » بضم التاء والواو .. « أهلا تو » ، « تعال يا تو » ، « كنت فين يا تو » .. وقد يستنتج البعض من ذلك أن اسمه الحقيقي « توفيق » أو « توكل » أو « توني » الخ .. ولكنه استنتاج غير مضمون ولا معنى له . كذلك لن اذكر اسم النادي الخاص ، يكفي أن نعرف عنه حقيقتين ، الاولى انه في الاسكندرية ، والثانية ان أبرز نشاط لاعضاء هذا النادي هو لعب البريدج ، وهم فخورون بالعبة ، ويقولون لك في زهو وكبرياء أن من بينهم خرج ابطال عالميون في البريدج .. وعندما انضممت الى ذلك النادي منذ سنوات قليلة حاولت أن أقنعهم بمزايا الشطرنج « لعبتي المفضلة » ولكنهم لم يقتنعوا بما أقول . وكان « تو » أحد الذين قبلوا في البداية أن يلعبوا معي الشطرنج ، ومازلت أذكر المناسبة جيدا فقد كانت إحدى محاولاتي غير الحذرة للاقتراب منه . فانتهزت فرصة وجودنا مبكرين في النادي وحدثته عن الشطرنج ، فاستمع الى ، ثم لمعت عيناه فجأة وقال :

- أريد أن ألعب معك .

فسألته متحديا :

- أتجيد اللعب .

أجاب :

- لا أدري .. ولكنى أستطيع أن أجيدها إذا أردت فى وقت قصير جدا ..

فضحكت قائلا :

- أشك فى ذلك .. الا اذا كانت لديك مواهب نادرة .

فقال فى لهجة حاسمة ، تخلو رقم ذلك من الوقاحة المتوقعة فى كلمات التفاخر والزهو بالنفس :

- أنا فعلا لى مواهب كثيرة .

وجلسنا نلعب الشطرنج ، وأعترف انه كان موهوبا حقا .. لانه غلبنى ، ولكن لانه أدرك بسرعة - وهذا شىء نادر بين من أعرفهم فى جيلنا من الرجال - أنه يحتاج الى بذل جهد قير عادى ليحيد اللعبة ، واتخذ قراره فى الحال ، رافضا أن يسقط فى هوة العناد كما يفعل فى العادة من يهزمون فى أية لعبة :

- لا .. هذه لعبة صعبة فعلا .. والطريقة التى تلعب بها تبين ذلك .. أنا لن ألعبها الا اذا كانت هى الشىء الوحيد المتبقى لى .
قلت متحديا :

- منذ نصف ساعة فقط .. كنت تتحدث عن مواهبك .

أجاب بسرعة :

- فعلا أستطيع أن أجيد الشطرنج . ولكن ليس هذا هو ماأريده الان .

ثم اضاف باسم :

- ان الذى جذب انتباهى الى الشطرنج .. هو حكاية « كشمات » .
لأشك أنى أكون مسرورا عندما أقول لخصمى « كشمات » .

كانت عيناه تضحكان وهو يسألنى ما اذا كان هذا هو رأى أيضا ، وخطر لى فى تلك اللحظة أن أسأل عما اذا كان له خصوم يكرههم الى هذا الحد ، بحيث يريد أن يقتلهم ، أو يتمنى موتهم ، ولكنى لم أجروا على سؤاله ، فقد شعرت أن ما بينى وبينه لا يسمح لى بأن أنطرق معه فى الحديث عن أسرار حياته ، واكتفيت بأن قلت لنفسى ان «تو»

يفرح لوت الخصم ، وحمدت الله انى لست ذلك الخصم الذى يريد له الموت .

ووجدتنى اقول له :

— لعلك لا تحتاج الى رقعة شطرنج لتقول كش مات .

وهنا تغير وجهه ، واختفت الابتسامة تماما ، ورشقتى بنظرة طويلة ، قبل ان ينهض فجأة ، ليلحق ببعض الشبان ليلعب معهم البريدج .

كان وجود الشبان بهذه الكثرة فى نادينا ، وفى صالة البريدج بالذات ، ظاهرة جديدة علينا ، تضابق الاعضاء السنين والمحاليين على المعاش ، وبينهم مرضى القلب والذبحة الصدرية ، الذين لا يستطيعون ممارسة أى شئ آخر فى الحياة ، غير لعب البريدج ساعتين فى اليوم ، والانغماس فى مفامرة المكسب والخسارة ، والفرح برؤية الخصم وهو يضع يده فى جيبه ويخرج محفظته ويفتحها بأصابع مرتعشة من الفيظ والانفعال ليخرج منها خمسين قرشا أو جنبها يدفعها للمتتصر . وبالإضافة الى هذه المفامرة الصغيرة كانوا يتمتعون فيما بينهم بتبادل الشتائم والتشنيعات بنفس الاسلوب الذى كانوا يتبادلون به مثل هذه الأشياء منذ أربعين عاما أو أكثر عندما كانوا طلبة فى الجامعة أو الثانوى ، وكان وجود السيدات المتقدمات فى السن لا يخرجهم ، وان كان يخفف بعض الشئ من الكلمات المبتدلة أو الجارحة ، انها تمتعتهم الوحيدة ، أو حريتهم الوحيدة المتبقية بعد الشوط المنهك الطويل الذى قطعوه فى رحلة الحياة ، وكان أبرزهم فى سلاطة اللسان لواء شرطة متقاعد ، كان يتلفت حوله ثم يهتف بفرح « النسوان موش موجودين ياولاد » ثم يطلق سيلا من الكلمات البديئة ، يكررها فى تلذذ ونهم . ويردد الكلمات والتأوهات الجنسية فى تكرار متغم نشوان كأنه مجذوب فى حلقة ذكر . وكان بين الحاضرين من الكهول من يخجل أو يفزع ، ولكن تمتعتهم بما يسمعونه كانت دائما أقوى من الخجل أو الفزع . وتسمع أكثر من واحد يقول « اللواء زهدى بك مصيبة ولكن دمه خفيف » .. ولكن الشبان — الاولاد الحقيقيين — ظهروا وتكاثروا وبدأ اللاعبون يهتمون لغير سبب مفهوم بلعب البريدج . وفرضوا بوجودهم غير المرقوب فيه نوعا من الوقار على الكهول اذ كيف يتبادل الكبار الشتائم وتتلذذون بالألفاظ الفاضحة ، امام اولادهم ، أو اولاد أشقائهم .. وحاول بعض

اعضاء النادي استصدار لائحة جديدة تمنع « الأولاد » من دخول صالة البريدج . وجلسوا يتحدثون عن السن المناسبة لدخول الصالة .. فوق الثامنة عشرة .. لا .. فوق الواحد والعشرين . حتى صاح فيهم أحدهم منبها الى أن هؤلاء الذين تقولون عنهم أولاد ، بينهم متزوجون ، أعمارهم بلغت الثلاثين ، فصمتوا واجمين حتى صاح « رءوف علي » أحد مديري البنوك القدامى ، وقد أصيب بالذبحة مرتين :

- ولماذا لا يلعبون التنس أو الباسكت لماذا لا يتركوننا نلعب بالراحة والهدوء .. الواحد منا عندما كان فى مثل شبابهم ، كان لا يطيق أن يضع وقتا فى صالة بريدج .. هذا حرام .

وقد تأثر بهذا الكلام « شكرى منصور » وهو سفير سابق ، متمتة شديد الوفاة فى مظهره الخارجى ، ولكنه ينقلب الى النقيض عندما يخلو المكان لاصدقائه الكهول وحدهم .. فيستمع الى تأوهات اللواء زهدى فى نشوة ، ويصيح بملء فمه « أنا أحب الهلس » .. والذي حدث هو ان السفير شكرى ذهب الى مائدة بريدج يجلس اليها ابنه « يسرى » مع بعض اصحابه ، وألقى عليهم محاضرة فى خطأ وجودهم فى هذا المكان ، ونظر يسرى ، وهو مهندس تخرج حديثا الى والده ، وقال فى هدوء قاتل :

- يا بابا لا تعطلنا .. اذهب واجلس مع أصحابك .

فانفجر الاب صارخا :

- أنا .. أو انت فى هذا النادي .

وهنا حاول أحد اصحاب يسرى أن ينهض قائلا ليسرى فى ارتباك .

- لا داعى يا يسرى .

ولكنه لم يكمل ، اذ خاطبه يسرى بلهجة قاطعة :

- اجلس انت .. ولا تتدخل بينى وبين هذا الرجل .

واستدار شكرى منصور ، ولم يعد الى جلسة أصحابه ، بل اتجه مباشرة الى الباب ، وخرج من النادي ولم يعد اليه حتى الآن .. وعقد جلسة بريدج خاصة فى بيته ، تردد عليها البعض لفترة قصيرة ، ثم سلموا ، وعادوا الى النادي فزعين ، وقد شاع بينهم خوف مبالغ فيه من هؤلاء الشبان ، أولادهم أو أحفادهم ، وكانوا يتهايمسون فيما بينهم من خطورة الأولاد وضراوتهم . حتى سرت بينهم أشاعة لا أدرى

من هو مصدرها ، تفسر انقطاع « شكري منصور » عن النادي بحكاية غريبة تقول ان الاب احتك بابنه فى البيت مرة أخرى ، فتجرا الولد وضرب أباه ضربا مبرحا ، اضطره الى الاستنجاد بشرطة النجدة .
وان « يسرى » قد هدد أباه بأنه سوف يضربه مرة أخرى لو رآه يذهب الى النادي او يتردد على صالة البريدج . والرواية كلها غير معقولة ، ولكن السنتهم تناقلتها ، لتصور ما فى نفوسهم من خوف ولا أقول كراهية للشباب حتى أنهم أصبحوا يخشون أن يحرمهم الاولاد من دخول النادي .

ولكن - تو - مقبول من الجميع ، فى كلا المسكرين ، الكهول والشباب ، رغم أنه شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين . وكانت أول مرة رأيت فيها « تو » فى صالة « البريدج » منذ حوالى العام ، وأول ما جذب انتباهى الى وجوده هو صوته ، فقد ارتفع فجأة صوت سريع عصبى تتزاحم فيه الكلمات بطريقة غير عادية ، وكنت اجلس الى جوار رءوف على يحدثنى عن ذكرياته فى السودان عندما قطع سرده ، ملتفتا الى مصدر الصوت وزعق :

- خفض صوتك يا « تو » لست وحدك هنا .

فالتفت اليه « تو » باسمنا وقال معتذرا :

- حاضر يا رءوف بك .. لا تقضب .. لكن ..

وانطلق « تو » يشرح من مكانه البعيد كيف أن زميله اخطأ فى اللعب .. فقاطعه رءوف يائسا :

- اسكت يا اخى .. وجعت دماغى .

وسكت « تو » بعد ان قال وهو يتسم :

- حاضر .

تأملت « تو » فى دهشة : شاب متوسط القامة ، ممتلىء قليلا ، رأسه ضخيم ، يرتدى القميص الملون والبنتلون الشارلستون ، فى شكله بعض البهذلة ، وشعره الاسود الغزير منكوش فوق رأسه ، شأن أغلب شباب النادي الذين يقلدون مايرونه فى الافلام وصور المجلات لشباب العالم فى هذه الايام .

قلت لرءوف معلقا :

- الشباب له أحكام .

فقال هامسا :

هذه قلة أدب .

قلت :

— ولكن هذا هو الشباب .

قال وهو يقترب منى براسه كأنه يهمس بسر :

— هذا الولد الصايع لا عمل له هنا .

وأضاف الى معلوماتى ما شد انتباهى الى « تو » .. قال لى انه ليس عضوا فى النادي ، وأنه يدعى أنه طالب فى السنة النهائية بكلية الزراعة ، وأنه رغم ذلك يأتى الى النادي كل يوم فى الصباح حتى المساء ولا عمل له الا ان يلعب مع أولاد الاعضاء ويكسب منهم .

فسألته :

— أهو من الشبان الذين يقولون عنهم أنهم عاطلون بالوراثة .

قال :

— بالعكس .. انه فقير قلبان .

فسألته فى دهشة :

— وكيف دخل هنا .

قال لى مؤكدا :

— سوف نجتمع ونقرر طرده ومنعه نهائيا من دخول النادي .

قلت :

— وما الذى يمنع من طرده الان ..

همس :

— يبدو أنه على صلة باللواء زهدى ، ويقال أنه قريب له .. على أية حال سوف نتفاهم معه قبل أن نتخذ قرارنا . وحدثت أنى تركت الاسكندرية لبعض الوقت .. ونسيت كل شيء عن « تو » حتى عدت الى النادي بعد أكثر من شهر ، لافاجأ بوجود «تو» ، وقال لى رءوف بلهجة متفلسفة :

— لقد تصرفنا كالمجانين .. وقررنا تعيين « تو » فى النادي ،

لقد كانت حكايته هى شغلنا الشاغل اثناء غيابك ، كانت فرصة لممارسة سلطاتنا التى افقدناها فى التعيين والرفق ، فقررنا أولا طرده والتنبيه على سعد المراقب بمنعه من الدخول حتى لو كان مع أحد أولاد الاعضاء .. وبعد أن اتخذنا القرار ، ارتفع أكثر من صوت يقول : حرام .. يجب أن نسامحه .. أو نبحت له عن وظيفة .. وطبعاً كان وراء هذه الأصوات اللواء زهدى ، فقررنا تعيينه معاونا لمصالة البريدج ، يشرف على نظافتها وعلى أوراق اللعب وحجز

- الموائد وكل هذه الامور .
سألته :
- ومتى حدث هذا .
قال :
- منذ يومين فقط .
ثم أضاف ساخرا :
- المهم أننا مارسنا سلطتنا القديمة وشعرنا بأننا قادرون على التعيين والرفق .
وهنا خطر لى ذلك خاطر المزع فهمست :
- ولكن الامر مريب .
فنظر الى بعينين فيهما دهاء الكهول وسألنى :
- ما الذى يريك .
همست :
- ان تعيينه .. ليس مفهوما .. كذلك مجيئه الى النادى اول الامر .. لقد خطر لى وأنت تحدثنى الان .. إنه قد يكون فى الامر شيء .
- فضاقت عيناه وقال باسم :
- طبعاً .. لقد خطر لنا جميعا نفس الشيء ..
قلت :
- قد يكون جاسوسا علينا .
فقاطعنى بلهجة تأكيد :
- أنا واثق أنه من المخابرات .
فسألته مترددا :
- كيف تجزم بشيء كهذا .
قال وهو يتلفت بحوله :
- لست فى حاجة الى ان أجزم .. ان هذا هو شعورنا جميعا ..
فبمجرد ان طرح اللواء زهدى فكرة تعيينه .. تهامسنا بأنه مطلوب تعيينه لهذا الغرض .
قلت :
- ولكن زهدى على المعاش .
فاجاب وعلى شففيه ابتسامة مأكرة :
- أمثال هؤلاء لا يتركون الخدمة حتى الموت .. لابد ان له دورا

فى عمليات المخابرات او المباحث .. هذا شأنهم جميعا .
وعدت انظر فى اتجاه « تو » وفى صدرى مشاعر مختلفة من
الفضول والحذر ، وانا احاول ان اجد فى مظهره ما ينبئنى عن حقيقة
مخبره ، وان كنت أعلم ان مثل هذه المحاولة ميؤوس منها ، وجعلت
افكر فى هذا الوضع الشاذ الذى يتعرض اليه « تو » ويقبله ، فهاهو
يبدو ، او يتظاهر ، وكأنه احد الاعضاء ، وهاهو يختلط بالشبان
الذين هم من طبقة اجتماعية أخرى غير طبقة ، ومع ذلك فالجميع
يعرفون حقيقة وضعه .. وهو أنه ليس منهم .. وأنه ليس عضوا ،
بل موظفا وأجيرا عندهم .. هل مثل هذا الوضع الغريب يصلح لرجل
مخابرات ؟ لا اظن . ومع ذلك فالامر قيم مفهوم تماما ، اذ لماذا يقبل
« تو » هذا الوضع ، وهل هو مضطر اليه ، او هو يتعمد ان يكون
كذلك لغرض فى نفسه ، وخطر لى انى ربما اكون قد ظلمته بهذه
الهواجس ، فقد يكون واحداً من ذلك الشباب الغريب الذى لانستطيع
ان نفهمه نحن أبناء الاجيال الماضية ، لعله واحد من تلك الطيور
الغريبة التى تشق طريقها فى الحياة بوسائلها الخاصة المبتكرة التى
لا تخطر على بال امثالنا .. ا تكون الحياة قد دفعت به الى هذا المكان
كمحطة يستريح فيها بعض الوقت ، قبل ان يطير الى مكان آخر
يعط فيه . حقا ان هذا النادى اشبه بالمحطة ، بعض من فيه كهول
ينتظرون القطار المسافر الى الحياة الأخرى ، وبعض من فيه شباب
يتسكع فى انتظار قطار مسافر الى فرص أوسع فى الحياة . على
آية حال ، قررت بينى وبين نفسى ان احذر من تو ، وأن اتعامل معه
بحرص اذا شاعت الظروف ان نلتقى ولا بد ان هذه الظروف سوف
تتبعها يوما ما ، مادام كلانا يواظب على التردد على هذا النادى . ورغم
حذرى وهواجسى وجدتنى اتبعه بعينى ، واكتشفت انى اراقب كل
صلة بينه وبين اللواء زهدى ، ولاحظت ان زهدى لا يتحرج فى اخذه
حريته وممارسة هوايته فى ترديد التأوهات والكلمات البدئية امام
« تو » رغم أنه لا يفعل ذلك امام الشبان الآخرين .. فزهدى لا يشعر
بحرج امام « تو » ويعامله بكل تأكيد من مركز سلطة . وهو مايعنى
ان هناك علاقة ما بينهما .

وذات مرة ، وجدتنى ابتسم فى وجه « تو » الذى أقبل على
يحيينى مرددا اسمى كأنه يعرفنى منذ زمن بعيد ، وسألنى عن رأى
فى نظافة المكان ، وحدثنى عن اقتراحه بتغيير نظام موائد اللعب ،

وفقدت كل حذرى فسألته :
- هل انت طالب في كلية الزراعة .
فأجاب على الفور :

- نعم .

ثم اضاف بلهجة جعلتني اجزم بأنه لا صلة له بالزراعة او كلية الزراعة ، ان التعليم الجامعى لا فائدة منه .. وأنه لايجب ، ثم سألنى عما اذا كنت اعرف أحد مديرى فندق فلسطين ، فأجبته بالنفى ، فقال انه ذاهب الى هناك غدا ليلحق بالعمل هناك .. ثم عاد وصحح ماقاله ، بأنه ذاهب فى امتحان للوظيفة ، وان له خلافاً اذا نفوذ قد اوصى عليه ، ولم يذكر لى اسم خاله ، وانطلق يتحدث بسرعة مضاعفة وبلهجة غليها الانفعال عن مواهبه . واجادته لثلاث لغات هى الانجليزية والفرنسية والاطالية ، وأنه يستطيع أن يعمل فى العلاقات العامة فى الفنادق ..

وقاطعته فى هدوء ، مخفياً تشكى فى صدق كلامه :

- ارجو أن تفلح .

فقال فى حدة غير مفهومة وقد تحولت كلماته الى ما يشبه اللعنة :

- كل شيء اتجه اليه .. كل عمل ارجب فيه تقف دونه العقبات .. ولكنى على اى حال مصمم على العمل هناك .. واذا لم انجح فى فلسطين فساسافر الى القاهرة واعمل فى شيراتون او الهيلتون .. قلت وانا اتحصن بالكلام فى الموميات :

- انا واثق ان اصرارك هذا سوف يجعلك تحقق كل ما تريد ..

قال فى حماس اقرب الى أنفعال لا يستطيع السيطرة عليه :

- ان الصعاب ان تمنعنى .. انا عندى مواهب .. ولا بد ان اشق طريقى وأصل .

خيل الى فى تلك اللحظة ، انه اشبه بممثل ردىء ، فقد راودنى احساس قمامض ولكنه قوى ، بأنه يريد أن يخدعنى وأله قير صادق بالمرة فيما يقول ، وان هناك ما يخفيه عنى ..

ومع ذلك ، لم يبد منه ما يدل على أنه يريد أن يخدعنى انا بالذات فأتا الذى كنت أتوقع نحوه ، بينما هو مشغول عنى ، حتى شجعت نفسى على الاعتقاد بأنه يعتمد الابتعاد عنى لسبب ما اجهله تماماً .. ولاشك أن هذا البعد كان كفيلاً بأن يثير الطمانينة فى نفسى ، فالأفضل

- منطقيا - ان اشعر بانى لست محل اهتمام هذا النصاب ، او الجاسوس او رجل المخابرات ، او ايا كان هو .. ولكن من قال ان النفس البشرية ترضى بمثل هذه الطمأنينة .. ان نفوسنا تقلق من اى ابتعاد عنها ، حتى ولو كان هذا الذى يعتمد مصدرا للخطر . ولعل هذا هو الذى دفعنى الى ان اتهم ذات مساء ، وبغير سابق تدبير ، فانتهاز فرصة خروجى مع اللواء زهدى من النادى ، وقبل ان يتركنى ليدخل سيارته ، اذا بالسؤال يخرج من فمى ليفاجئنى قبل ان يفاجئ زهدى :

- ماهى حكاية « تو » يا زهدى بك .
ونظر اللواء زهدى الى نظرة طويلة غريبة . كانت عيناه تفحصاننى فى دهشة قبل ان يسألنى بصوت يحاول ان يكم انفعاله :
- لماذا تسألنى هذا السؤال .
قلت مندفعاً وقد فات اوان التراجع :

- انه يبدو لى مريباً .
فصاح اللواء زهدى محذراً وبلهجة خيل الى ان فيها شهوراً بالالم .

- لا تجلب المتاعب بدون مبرر ،
قلت :

- المتاعب لمن ؟

ا قلتها فى حدة ، وقد ظننت انى قد ظفرت أخيراً بشجاعتى ، وانى على وشك ان اصل الى ما أريد من طمأنينة حقيقية ، أعنى طمأنينة الفهم . وبدا لى ان زهدى يوشك ان يتكلم .. كان ينظر الى وكأنه ينظر الى مجهول .

ولكن يبدو انى أقدمت على تصرف غبى فى هذه اللحظة ، فقبل ان ينطلق زهدى بكلمة ، تعجلته قائلاً :

- فى الحقيقة انا لا أفهم شيئاً .

وكان ماقلت قد جعل زهدى يفيق ويتيقظ فاذا بالحيوية تدب فيه فجأة ، ويضحك ساخراً ويقول :

- هل أخذت كلامى على محمل الجد .

قلت فى اصرار لا يخلو من عيظ :

- لن تتراجع الان .. لقد حدثتنى عن المتاعب التى يجلبها سؤالى .

فثبت نظراته فى عينى ، وقال وهو يضحك ضحكة جافة :
- واى متاعب يستطيع ان يجلبها هذا الولد .. انه لاشيء على
الاطلاق .

ثم اضاف بلهجة يصطنع بها اهتماما كاذبا :
- هل ضايقتك فى شيء .

قلت بسرعة وقد عاودنى شعورى بالحذر :

- أبدا .. أبدا ..

فمد يده يضافحنى .. متمتما بكلمات اعتذار مقتضبة عمن
اضطراره للانصراف فى الحال .. وركب سيارته وانطلق بها .

الفصل الثانى

استبد بى الفضول ، فدفعنى الى محاولة الاقتراب من مجموعة الشبان الذين يلعبون البريدج مع تو . ولم أجد صعوبة فى ذلك ، فأغلبهم قد قرأ لى رواية ، أو سمع عني ، وقد يسألنى أحدهم سؤالاً أو سؤالين عن الأدب أو أخبار الصحافة . ولكنى ما أكاد أفتح فمى لأجيب ، حتى أشعر بأن صاحب السؤال غير مهتم بما أقول فهو مشغول تماماً بأشياء أخرى غير التى أحدثه عنها ، وسرعان ما اكتشفت أن الصلة الحقيقية التى يمكننى أن أعقدها مع هؤلاء الشبان ، لن تعتمد على حديث الفن والثقافة ، بل تعتمد أساساً على سيارتى الإيطالية السريعة ، من طراز « الفاروميو » . فكنيت أتعهد الانطلاق بها مسرعاً لأجذب انتباههم الى سرعتها غير العادية وبالتالى أكسب اهتماماً أكبر بى . وهذا هو ما حدث فعلاً . فذات ليلة ، كانوا قد اتفقوا على قضاء السهرة فى بيت صديق لهم لا أعرفه ، وكانوا فى حاجة الى سيارة ثانية لتنقلهم الى بيت ذلك الصديق فى « رشدى » وبينما هم يتناقشون فى حدة .. حول من يركب سيارة « لطفى » وهو محام تحت التمرين يعمل فى مكتب أبيه المحامى المشهور بالاسكندرية ، ومن منهم يركب التاكسى ، اذا بى أنتهز الفرصة ، وأعلن لهم أنى على استعداد لأن أقدم لهم خدماتى . ورحبوا بهذا العرض ، وتحمسوا لركوب الالفاروميو ماعدا « تو » الذى ظل ساكناً ، بل كان اقرب الى الوجوم ، أو هكذا خيل لى ، وعندما هبطنا الى الشارع ، ذهب « تو » من تلقاء نفسه الى سيارة « لطفى » الفولكس ، وظل واقفا بجوارها ، كأنه امر مسلم به أنه سيركب تلك السيارة ، وأنه لا يعنيه فى قليل أو كثير أن يركب معى . وراقبته من خلف زجاج سيارتى وهو ينحسر بين اثنين فى المقعد الخلفى للفولكس ، ولا يحاول أن يلتفت ولو مرة واحدة ناحيتنا .

وما كدنا نتحرك ، حتى اندفعت « الفولكس » بسرعة غير عادية ، وبذلك أعلن لطفى أنه يتحدى سرعة عربتى . ولو كان ذلك قد حدث فى أى ظرف آخر ، لكنك ابتسمت ، وقلت لنفسى ، هذا طيش عيال ، ولكن الظرف الان مختلف ، فكل ما بينى وبين هؤلاء الشبان من صلة ،

لا يعتمد على احترام السن ، أو ما يمكن أن أسميه بمكانتى الادبية الى آخر هذا الكلام الذى لا يعنيه فى شيء . ان المبرر الوحيد لوجود صلة معقولة بينى وبينهم ، هى فى قدرتى على الانطلاق بما كينة الالف روميو بطريقة باهرة تجعلهم يحترمونى بالقدر الكافى . انها لوثة أصابتنى وجعلتنى أفكر على هذا النحو ، ولاشك أن بعضاً من طيش الهيال قد أصابنى ، بعد أن سعت الى التعامل معهم ، والتصرف عليهم ، وعلى أية حال فقد أندفعت فى سباق جنونى فى طريق الحرية ، والفولكس اللعينة ، تستفيد من حجمها الصغير ، وقدرتها على التسلل والافلات من محاصرة السيارات والأتوبيسات وعربات النقل بينما اعتمدت على وقفات اشارات المرور ، وقدرتى على الاندفاع بسرعة مائة كيلو بالحركة الاولى للسيارة ، وكنا على وشك أن نسبق الفولكس عند مستشفى المواساه ، عندما سمعتمهم يصيحون فى انفعال :

— تو يضرب لطفى كأنه جوكى .
فهتفت فى دهشة :

— تو ..
قالوا :

— نعم .. انه سيموت من الفيظ لو سبقناهم .

ولاشك أن هذه المعلومات اربكتنى ، فقد كادت حياتنا أن تنتهى فى تلك اللحظة وقد ظهرت أمامى فجأة عربة نقل واقفة بغير أنوار . وما كدت أتفادها ، حتى سمعت صيحاتهم بأنهم سبقونا ، وكانت يداى ترتعشان ، ثم امتدت الرعشة الى قدمى التى تضغط على البنزين ، وايقنت أن أعصابى قد أرهقت ، ورقم ذلك استولى على عناد أحقق ، فلم أخفف من ضغط البنزين ، واندفعت الالف بسرعة مخيفة ، وأنا لا أدري ما إذا كنت أسيطر على اندفاعها أم أنها تجرى بقوة مجهولة ، وسبقنا الفولكس عند إشارة المرور فى الأبراهيمية ، ولا بد أنى خزقت إشارة المرور ، ولا بد أنى نجوت أكثر من مرة من موت محقق ، ولكن كل هذا كان يحدث وكأنه يحدث ، فلم أعد أمى ما يدور حولى ، ولا أسمع الصيحات والنداءات ، كانت لحظات بلا منطق ، لا يحكمها حرمى أو حذر ، ولا يحكمها قانون خارجى من اشارات حمراء وخضراء ، ورجال مرور ، وسيارات وأناس تعبر الطريق . الشيء الوحيد الحقيقى ، كان ذلك الحريق الهائل داخل موتور السيارة ، التى يندفع بها ، وذلك البنصر الذى يرتجف به

كل عصب فى جسدى ، لاشك فى أن كل ذرة فى جسمى كانت فى قمة نشاطها ، وتوشك أن تنفجر كما تنفجر معها السيارة فى أية لحظة ولكن شيئاً لم ينفجر ، وما كنت لحظتها أستطيع أن أدرك ، وقد فقدت عقلى تماماً ، أن هناك شيئاً يوشك أن ينفجر ، وكل ما أذكره بعد ذلك هو أن السيارة وقفت أمام فيلا فى شارع جانبى ضيق متفرع من طريق الحرية عند رشدى . أذكر الشارع المظلم ، وصيحاتهم التى لا اسمع ولا أفهم ماتعنيه ، ثم أذكر وجوههم وهى تخاطبنى ، وهى تحمل وهجا فى العيون . ثم أذكر كيف بدأت استرد ذاكرتى ، وأفكر فى أن الفولكس سوف تأتى الآن فى أية لحظة . وأذكر أن كل ما كان يهمنى عندئذ ، هو أن أرى « تو » يهبط من « الفولكس » وأن أنظر فى عينيه ، وأنى سأتمتع فى لقاء النظرات بفرحة فوز ، وما كان يهمنى أن أراجع نفسى وأسألها عن قيمة هذا الفوز ، وهل هو فوز رخيص ، أم كبير . ولكن تشاء الظروف أن تلقننى درساً ، تعلمته كاملاً فيما بعد ، وكانت بداية هذا الدرس فى عدم وصول الفولكس وما أعقب ذلك من أحداث ، أن أعجلها ، ويكفى أن أسجل الآن ، أتى لم أحصل على ذلك اللقاء الذى توقعته مع تو ، ولم أحصل على فرحة الفوز . كانت قد مضت أكثر من عشر دقائق ، دون أن تظهر السيارة التى سبقناها وبدأ لنا شبح حادث وقع لهم ، ورغم أن هذا الاحتمال كان شبه مؤكد مع هذا التأخير ، إلا أن من كانوا معى لم يكثرثوا بالامر ، أو على الأقل لم يقلقوا بنفس درجة قلقى ، وكان أهم ما يشغلهم اقناعى بالصعود معهم الى الفيلا التى لا أعرف أصحابها ، وأذعنت عندما قالوا لى : « ابقى معنا حتى نسمع شيئاً عن أخبارهم فقد نحتاج الى عربتك مرة أخرى » .

فتحت لنا الباب فتاة مريحة لا يزيد عمرها على الثامنة عشرة ، وجهها صبوح بلا ماكياج ، وشعرها بنى منسدل على كتفها كاسلاك من خام النحاس . ولها عينان سوداوان واسعتان فيهما بريق ينفجر بالشقاوة والعفوة ، ترتدى بلوزة صفراء ، وبظلونا رمادياً فضفاضاً أشبه بسرابيل جاريات هارون الرشيد ، أو هكذا قلت لنفسى ، مع أنى لا أعرف على وجه الدقة ماذا كانت ترتدى جاريات الرشيد . وبعد برهة ، تبينت أن اهتمامى بهذه الفتاة لا يوجد ما يبرره ، فليس هناك ما يجزم بأنها من أصحاب البيت ، كنا دلفنا الى ضالة واسعة ، مزدحمة بالأولاد والبنات ، وتضج بالموسيقى ، وصوت توم جونز ، ولا أحد قدمنى لأحد ، ولا أحد يبدى أى نوع من الاهتمام بوجودى ،

فقضيت لحظات حرجة اعالج فيها مشكلة اهتمامى بنفسى ، وكنت اتحرك ببطء شديد ، ولا أدرى ما صلة عدم اهتمامهم بى ، بشدة اهتمامى بالآثار انتباههم . فهكذا كانت حالتى النفسية ، ووصلت أخيرا الى ركن احتميت به ، ثم فكرت فى ان اعود واسير بينهم ببطء لآخرج هاربا من المكان . ولكن مثل هذا الخاطر لم يدفعنى الى أى نوع من الحركة ، وسمعتهم يتحدثون عن موسيقى « ألسوبر ساكس » وخطر لى ان أفعل شيئا ، هو ان أهديء من روعى ، وأن أرقب هذا الجيل من الشباب ، ولكنى لم أهدأ ، وقد اختلطت امامى الوجوه والاصوات ، وتحولوا جميعا الى ما يشبه النقوش الصاخبة الزاهية فى سجادة فارسية ، انك لا تستطيع أن ترى مالا تعرفه ، وغربتى عن هذا الجو كانت تعمينى تماما ، بل أقول انها أفقدتنى القدرة على الابصار ، فلا أستطيع أن أميز بين فتاة وفتاة ، ولا أستطيع أن أمارس هوايتى فى التعرف على الشخصيات كما أفعل بسهولة ويسر وأنا جالس مع أعضاء النادى من الكهول . أو عندما أذهب الى مقهى من مقاهى المنشية أو كامب شيزار . وقد بلغ بى الذهول انى وجدت فى يدى زجاجة « كوكا » قدمتها لى إحدى البنات ، لا أذكر من هى ولا متى أعطتها لى ، فلا بد ان ذلك قد حدث بسرعة وبلا مقدمات ، وبلا كلمات من جانب من قدمتها وبغير انتظار لكلمة شكر من جانبى . كنت أحاول أن أبحث عن تلك التى أعطينى زجاجة الكوكا . كمجرد عمل أشغل به نفسى . عندما ارتفعت صيحة :

— كلهم فى قسم البوليس .
وقبل أن أفهم ما الذى يجرى ، كان أكثر من واحد يجذبنى ، لآذهب الى قسم البوليس : انهم هناك .
وفى الطريق ، سمعتهم يرددون — لدهشتى — أن هذه ليست المرة الاولى وقال واحد منهم ساخرا :
— تو له مزاج خاص فى دخول اقسام البوليس .
ثم أضاف متفلسفا :
— لا بد أنه الآن فى قمة النشوة والسعادة .
وخفق قلبى وأنا أسمع هذه المعلومات الغريبة ، وسألت محاولا كتم الفعالي :

— وهل هذا مزاج ؟
وانطلقوا يروون لى عن حكايات « تو » ذات مرة كان يسير فى الشارع قبيل الفجر بعد أن تركهم فى نهاية السهرة ، وحدث أن

اعترضه مخبر واستراب فيه . وكان ذلك في وقت شاع فيه ان
بعض الجواسيس الاسرائيليين لهم نشاط خاص في الاسكندرية
وطلب المخبر من « تو » بطاقة تحقيق شخصيته . فامتنع ، فلما أصر
المخبر انهال عليه « تو » شتما ، انتهى بالتشابك بالابدى ، ورغم تأخر
الوقت تجمع بعض المارة ، واستطاعوا التدخل وفض الشجار
وأخرج « تو » بطاقته وعرضها على الناس ، رافضا أن يقدمها للمخبر
بدعوى أنه يشك في أنه مخبر حقيقى . وعندئذ أخرج المخبر بطاقته
وأثبت للجميع أنه فعلا من قوة الشرطة ، ولكن « تو » تشكك في
صحة البطاقة ، وفيجأة قال « تو » للمخبر :

— هيا بنا الى القسم .

وهناك وامام الضابط النوبتجى ، تصرف « تو » بنذالة غير متوقعة
فقد اتهم المخبر بأنه اعترض طريقه وطالبه بنقود . « ودليلي يا حضرة
الضابط انى لم ارتكب شيئا ، وهامى بطاقتى معى ، ولا يستطيع
هذا المخبر أن يتهمنى بشيء . وأنا الذى طلبت منه الحضور الى
القسم بعد أن هجم على وطلب منى عشرة صاغ . احمينى يا حضرة
الضابط من هؤلاء المخبرين المفلسين الذين تحولوا الى بلطجية » .
وهنا سألت معترضا :

— ولكن كيف عرفتم بهذه القصة ؟

قالوا ضاحكين :

— هو الذى رواها لنا .

قلت على الفور :

— ان خياله واسع .

ولكنهم رفضوا هذا التفسير . وشرعوا يعددون لى المناسبات
التي تفوق الحصر والتي تحرش فيها « تو » برجال الشرطة . أحيانا
كان يتحرش بهم فى اندفاع جنونى . عنده ارتكاريا من البوليس ،
يكفى أن يرى الواحد منهم ليتحول الى ثور هائج تلوح أمامه باللون
الأحمر .

ورغم اقتناعهم الواضح بما يروونه عن « تو » ألا انى لم أصدق ان
هذه هى الحقيقة . واعترف انى سمحت لبعض الخواطر الصبانية
أن تشغلنى . فقد خطر لى أن « تو » يلعب لعبة غامضة . من نوع
تلك الالعاب التى نراها فى أفلام جيمس بوند ، فمثلا يمكن أن يتخذ
احتكاكه بالشرطة كوسيلة للاتصال بهم بطريقة غير مكشوفة بتحايل
بها على آخرين يراقبونه ويتشككون فيه . . وأن حياته سوف تتعرض

الخطر لو أنه اتصل بالشرطة بأسلوب مباشر وعادى . ولكن سرعان ما بدا لى سخيف هذا الخاطر ، وأنه لا يفسر لى سلوك « تو » ولا يصل بى الى حقيقة امره . ويبقى رغم ذلك ما أستطيع أن أوكدته لى نفسى ، وهو أن فى الأمر سرا . ومع ذلك ماشأتى به ، وما الذى يورطنى فى هذه الامور الصبيانية التى لامعنى لها . أن الاختلاط بهؤلاء الاولاد ليس وراءه الا البهذلة ، سباق جنونى بالسيارات فى الشوارع ، وحفلات راقصة صاخبة ، وأقسام شرطة . أليس الاجدر بمثلئ أن يحتفظ بوقاره ، وأن يعود الى اصحابه فى النادي . يستمع الى .. وهنا توقفت عند مشهد زهدى وهو يصدر تأوهاتة الجنسية . وكنا قد وصلنا الى القسم .

دخلنا حجرة الضابط التوبتجى ، وقد جلس الى مكتبه خلف حاجز قصير من الخشب . وقد وقفوا ومعهم « تو » الى الحائط بينما جلس لطفى المحامى تحت التمرين . وقدمنت نفسى الى الضابط ومن حسن حظى أنه عرفنى . وقسرت له سبب حضورى بقولى « ولادنا فى النادي » فابتسم الضابط وقال وهو يتفحصنى :

— لعلك تكتب عنهم فى رواية .

قلت ضاحكا فى ارتباك :

— لو أفهمهم .

فقال :

— لا أظن أنه من الصعب على رجل مثلك أن يفهمهم ..

ثم أشار الى « تو » وقال :

— خاصة هذا الاستاذ .

وفوجئت بمشهد غريب . فقد صرخ « تو » صرخة مدوية ، فى حدة انتحارية — ولا أجد وصفا آخر لها — وقال :

— أنا معترف بأنى شتمته .. وسوف أشتمه .. أنا لا يهمنى شيء .. لا أنت ، ولا وزير داخلينك .

وأعجبني الضابط ، فى ذلك الموقف الغريب ، فقد احتفظ بهدوئه تماما ، وقال لى هامسا والابتسامة لا تفارق شفثيه :

— أحسن عقاب لامثاله أن تفوت عليه غرضه .. ولكن مادمت أنت هنا ، فأرجو أن تقول لى أنك سوف تهتم بعلاجه .

قلت فى دهشة :

— كيف ؟

قال الضابط :

— انه فى حاجة الى طبيب نفسى .
وعرفت بسرعة ما الذى جاء بهم الى القسم ، لقد منعتهم اشارة حمراء — ربما نفس الاشارة التى اخترقتها — من مواصلة السباق وخيل الى « تو » أن رجل المرور يتعمد أن يتلصق فى أعطاء النور الاخضر ، فصرخ بأعلى صوته شاتما رجل المرور ، الذى ترك الاشارة وتقدم من الفولكس وقال لمن فيها :
— موش عيب عليكم يا أفنديه يا متعلمين .
فاذا « تو » يحاول أن يهجم عليه ، لولا أن منعه زميلاه من حوله ، وانتهى الامر بتصميم تو ورجل المرور على الذهاب الى القسم .
قال الضابط هامسا :

— هذه حالة هيسترىيا واضحة .

قلت له معتذرا :

— هذه أول مرة أعرف بها .

وعندما خرجنا من القسم ومنا « تو » كانت نفسيته قد تبدلت تماما . كان فى حالة هدوء تام ، هدوء مابعد الماصفة ، وقد فاجأنى رغم أن مفاجاته لتتابعها لم تعد مفاجآت ، باعتذاره للضابط . وكانت الدموع تترقرق فى عينيه وهو يعتذر ، مما أثار الشفقة فى نفسى ، وأثار نوعا من النظرات والبسمات الساخرة عند الآخرين ، وكنت قد نسيت تماما نظرة الفوز التى أعدتها لالقاء بها . أن لقاء نظراتنا على نحو إنسانى فيه فهم متبادل ، وفيه معنى يدركه كلانا ، ما زال أمرا بعيد التحقيق . وكما قلت ، لم أكن أعرف فى ذلك الوقت ، أن ماحدث ، وما سوف يتلوه من أحداث ، كان بداية لدرس سوف أتعلمه كاملا ، حول معانى لقاء البشر ، واهمية مايدور بينهم من سباق وتحديات ، وما يصاحب ذلك من تعرف على القيم والاحكام فى مواجهة الحياة والموت . ولكن مهلا ، فلاداعى للمجلة ، ولا للانسياق مع ماينتابنى مع هذه الذكريات من انفعالات . الذى جذب انتباهى بعد أن تقدمنا خطوات خارج القسم هو أن « تو » توقفت ومد يده وأخرج بطاقته الشخصية وفحصها باهتمام ، وخيل الى انه يعيد قراءة اسمه ، فقد تحركت شفتاه . وعيناه مثبتتان على البيانات المدونة فى البطاقة . وأخيرا ظهرت على وجهه ابتسامة هادئة ، تمزج — هكذا خيل الى — بالمدفون كأنه يخفى سكيناً مدفوساً فى ضلوعه ولا يريد أن يعرف أحد منا بأنه مطعون بهذا السكين . ووجدتنى أقدم منه وأسأله باهتمام ساذج :

— هذه بطاقتك الشخصية طبعاً .
فوجه الى نظرات مستسلمة . تشع حزناً ، وقال وهو يقدمها الى :

— هي بطاقتي .. انظر .
قالها كأنه يطلب منى أن أتأكد له . وهو طلب لو صح لكان غريباً ولا تفسير له ، فارتبكت ، ومع ذلك مددت يدي الى البطاقة ، كنت لا أستطيع أن أرد يده الممدودة الى ، وأمسكت البطاقة ورددت في غير فهم :

— انها بطاقتك .

قال هامساً :

— وفيها اسمي .

وخيل الى أنه قد مضت برهة قبل أن يضيف بنبرة خاصة :

— وفيها اسم أبى وجدى .

قلت :

— أذن فهي بطاقتك .. لقد ظننت أنك تخشى أن يكون الضابط

قد أعطاك بطاقة أخرى .

فنظر الى محدقاً .. قبل أن يقول بصوت غريب :

— ليته فعل .

نظرت اليه ، كانت عيناه لا تريانى ، واختطف بطاقته من يدي ، وجرى الى السيارة الفولكس يلحق بهم .. واذا به يصبح :

— هيا تكمل السباق .

هتفت فزعاً :

— مستحيل .

لم أعد قادراً على احتمالهم ، لقد شدوا اعصابى بما فيه الكفاية ، وبلغ بى الارهاق حداً أصبح فيه من المحتم أن أشرب قدحين من الينسون وأنا داخل فراشى حتى أنام .

ولم أتم ليلتها ، فقد شغلت باجتراح ماحداث ، حتى سمعت أذان الفجر يتردد خارج البيت من مئذنة الجامع المجاور . عندئذ لعنت الارق ، ولعنت الفضول ، وتذكرت مقالته لى الضابط ، عن هذه الشخصيات . وبدأت أفكر من جديد ، هل هناك احتمال فى أن يأتى يوم أعرف فيه السر .. سر « تو » . ثم اذا بى أسأل نفسى فى حيرة وقلق . هل هناك سر على الاطلاق ، أم هى أوهام تراودنى وتجعلنى أتخيل أشياء لا صلة لها بالواقع ، وعندما وصلت أفسكارى

الى هذا الحد ، غلبنى النوم .
وذهبت فى المساء الى النادى ، وأنا اعرف انه لا مفر من لقاء
حاسم بينى وبين اللواء زهدى . فلما وصل هجمت عليه ، وقلت له
وقد اتخذت مظهرا حادا :
- اسمع يا زهدى بك . انت الوحيد الذي يستطيع أن يشرح لى
الموضوع وأصله وفصله .
ولم أتركه يتراجع ، فرويت له ما حدث فى قسم الشرطة وحالة
الهيستريا التى أصابت « تو » . وكان يستمع الى ، ووجهه يتغير ،
بل كان أحيانا يتقلص من الألم .
وأخيراً ، جمل يتلفت حوله ، كأنه يختنق ويبحث عن نسمة
هواء .. ثم جذبني من يدي قائلاً :
تمال معي الى بيتي .. سوف أحكى لك كل شيء .

الفصل الثالث

يسكن اللواء زهدى فى احدى عمارات « الازارطة » المطلة على ترام الرمل .. وهو يعيش وحده ، وقد تعود على ذلك منذ زمن بعيد منذ أن طلق زوجته التى انجبت له ابنه الوحيد حسن . ويقولون فى النادي أن الطلاق تم والزوجة مازالت حاملا . على أية حال أنها قصة قديمة مضى عليها أكثر من ربع قرن ، وكان قد سبق لى زيارة زهدى فى بيته مرة واحدة ، ومن يومها قررت بينى وبين نفسى ألا أكرر هذه الزيارة مهما كانت الاسباب . كان ذلك منذ حوالى عامين ، وكنت قد ذهبت الى النادي فى الصباح ومعى بعض الصحف الأجنبية لأقرأها ، عندما دخل زهدى ، ولم يجد أحدا غيرى من معارفه ، وكان مجيئه فى مثل هذا الوقت أمرا غير مألوف منه ، وجلس معى . وسرعان ما تبينت أنه متوتر الأعصاب ، لأنه قادم لتوه من الميناء بعد أن ودع ابنه حسن المهاجر الى كندا . ورثت لحاله ، لانى أعلم بالمحاولات اليائسة التى بذلها ليقنع « الولد » بالبقاء معه والعدول عن مشروع الهجرة . كان زهدى يملك أرضا خصبة بجوار كفر الدوار استطاع أن يحولها الى حدائق ، وكان يقول لأصحابه شاكيا : هذه الأرض دخلها السنوى لا يقل عن ثمانية آلاف جنيه ، ويعلم الله الدماء التى نزلتها والأعصاب التى أحرقتها ، لأجعل منها حديقة مشمرة ، ولن كل هذا ، اليس لابنى حسن ، يرثها ويتمتع بها هو وأولاده ، ولكن هاهو يريد أن يتركنى ويترك الأرض والبلد ومن فيها ويهاجر .. هل سمعتم بشئ مثل هذا . لو كان فقيرا محتاجا لاقتنعت بماء يريد ، يسافر ويكافح ويشقى فى بلاد الله ليحصل على رزقه ، ولكن الرزق أمامه فلماذا يتركه ، لماذا يترك أرضه ، لبحث عن أرض أخرى لا يعرفها ولا يملك فيها قيراطا اليس هذا هو الجنون بعينه ؟

وكان أصحاب زهدى يرونه متجهما مهموما ، فيعرفون أن الولد مصمم على الهجرة ، وأحيانا يرونه مبتسما راضيا ، فيقدرون أنه نجح فى اقناع الولد بالعدول عن فكرته ، وأحيانا كانوا يسخرون

من زهدى .. قائلين له : الولد له كل الحق فى أن يتبرا منك ، وقد يتجرا واحد منهم فيقول له وهو يتبادل معه الشتائم : وما أدراني أن هذا الولد ابنك لقد طلقت أمه من قبل أن تلده .. وكان زهدى لا يفضب من مثل هذه التعليقات الحادة ، بل يواجهها بأن يروى بالفاظ بذئبة ، كيف أنه واثق من تلك الليلة التى أنجب فيها الولد ، وقد يصفه أكثر من واحد من أصحابه بأنه .. متهما إياه بأنه مصاب بالشذوذ ، ولكن مثل هذه الاتهامات كانوا يتبادلونها جميعا فيما بينهم على طريقة أولاد المدارس . فهى لا تعطى اتهامات حقيقيا ، انها مجرد ألفاظ وأسلوب يناوشون به بعضهم بعضا ، وذات مرة تحدث معى زهدى فى مشكلة ابنه ، وكان جادا ، يريد نصيحتى .. وكان مما قاله لى ، أنه عرض على حسن أن يعطيه مرتبا شهريا من جيبه فوق مرتبه كمهندس زراعى ، وأنه على استعداد لأن يعطيه مائة جنيه فى الشهر ، وهو مبلغ كبير ، اذا قدرنا أن الولد يستطيع بعد ذلك أن يتزوج ، وهناك عشرات العرايس ، كلهن من بنات أحسن العائلات فى مصر . ولن ترفض واحدة منهن أن تكون زوجة له ، ولكن حسن رفض كل هذه المقترحات كأنه واقع تحت تأثير سحر يلغى قدرته على التفكير فى مصلحته ، ثم أضاف زهدى منفلا :

— هل تصدق ياسيدى ، أنى حاولت افساده ، قلت لنفسى ، ربما لو تعود على سهرات الكباريهات والبنات إياها ، فربما يتخلص من هذا العفريت الذى يركبه واسمه الهجزة ، ولكن لا فائدة ، أرسل خطابات ، وتلقى خطابات ، وملا استثمارات حتى اضطرت الى التدخل واستخدام صلاتى لمنعه من السفر ، فما كان منه الا أن قاطعنى ، وسمعت أخيرا أنه قدم أستقالته من عمله .
وسألته :

— ولماذا تقف فى سبيله .. اتركه يفعل مايشاء .
قال محتجا :

— والأرض ..؟

قلت محاولا تهدئة روعه :

— سيعود اليها يوما ما .. ليس هذا هو المهم ..

فصاح فى ضيق لا يخلو من سخريه :

— وماهو المهم .. باذن الله .

أجبت :

— المهم هو ان تثق به .. والا تفرض عليه حياة اخرى غير التى
حلم بها .

ورفض تماما هذا المنطق ، وانطلق يحدثنى عما يجب ان تكون عليه
الصلة بين الاباء والابناء . الولد يرث اياه ويحمل رسالته من بعده .
لولد مثل المال زينة الحياة الدنيا . والاب يملك ابنه ويتمتع بهذه
اللكية كما يتمتع بماله الخاص . واذا كنا سوف نموت يوما ما ،
فلسوف نحيا فى اولادنا ..

واذكر انى قاطعته قائلا :

— ان الحياة التى تحملها أجسادنا الفانية ، هى ملك للحياة كلها ،
اعنى الحياة فى جميع البشر ، ونحن لا نستطيع ان نحتكر حياة
خاصة بنا يتوارثها الابناء والاحفاد الى الابد .. ان هذه الحياة
الخاصة مرتبطة بأشخاصنا نحن ، ولابد ان تنتهى بوفاتنا .

فزمجر زهدى :

— هذا كلام نظرى تكتبونه فى الروايات والكتب ، وانت تقوله
لانك اعزب ، ولو كان لك ولد لما قلت هذا الكلام الفارغ .
وسكت باسمي ، فقد كان على وشك ان يشتمنى بالفاظه البذيئة .
ولكن لم تمض ايام حتى اعترف لى بأنه وافق على سفر الولد .

وهكذا انتهى الصراع بينه وبين ابنه ، وهامى الصدفة تجمعنى به
وهو قادم لتوه من ذلك الوداع الحزين . وحاولت ان اسرى عنه .
وفكرت فى شيء اقله يشعره بانى قريب منه ، فحدثته عن الصلة
بين رجل الشرطة وكاتب الرواية ، وكيف ان كليهما عليه ان يسجل
انطباعاته عن الناس ، سواء ماظهر منها وماخفى بدقة شديدة ،
وحدثته عن سومرست موم الذى استغلت المخابرات البريطانية موهبته
كروائى ، ليكتب لها تقارير خاصة عن البلاد التى يزورها ، ولاشك
انى افلحت بعض الشيء فى جذب انتباهه الى ما اقول . وكنت واثقا
فى نفس الوقت انه لا يفهم تماما ما اعنيه . وتأكل لى ذلك ، عندما
شرع يحدثنى عن كتب الادب العربى القديم التى يقتنيها . وكيف انها
فى مجلدات انيقة اشترها فى مزاد اقيم منذ سنوات فى قصر تاجر
لبنانى ثرى فى زيرينيا .. ثم دعانى فى حماس مفاجئ الى ان اذهب
معه الى بيته لانه قرر ان يهدينى هذه المجلدات .

تعجبت لحماسه المفاجئ ، وفسرته بأنه يريد ان يطمئن الى انى
سوف اكون معه اطول وقت ممكن ، وأنه لا يريد ان يخلو لنفسه
ليواجه ماتعانيه من آلام نفسية بعد وداعه لابنه حتمين ، ثم خطر لى

.. ان الامر قد يكون افدح من ذلك ، فهاهو بلا وعى منه ، يريد ان يتخلص من بعض مقتنياته التي كان لابد ان يحرص عليها لو كان حسن ممة ، يرثها منه ، ويضعها في مكتبته ليستفيد منها اولاده واحفاده . على اية حال ذهبت يومها ممة الى بيته في « الازارطة » ، وعندما دخلنا العمارة في طريقنا الى المصعد ، مررنا بشقة بابها مفتوح ، وقد وقفت خارج الباب ، امرأة ضخمة ، هائلة الجرم .. بديئة ، شعرها مخضب بالحناء ، وكانت تتحدث بصوت خافت مع رجل ليبي يكشف جنسيته غطاء رأسه وملابسه الخاصة البيضاء ، وما كادت المرأة ترانا حتى رفعت عقيرتها ترحب بزهدى ، وكان صوتها أجش يفضح حياتها الريبة .

ومعجبت للتحول المفاجيء الذي طرا على زهدى ، فقد انقلب بفتة الى رجل مرح سليلط اللسان ، يخاطب المرأة بكلماته البديئة . وقال لها ، وقد أمسك بذراعى ، أنه سيحاول أن يجعلنى واحدا من زبائننا ، وقالت له المرأة وهى تتمايل رغم ضخامة حجمها ، وبلهجة فيها دلال مبتدل ، انها لا تفهم ما الذى يعنيه ، فزعم لها زهدى أنى أحد المفرمين بها شخصا .. فاطلقت المرأة ضحكة عالية ممطوطة ألقت الفزع فى قلبى ، وقالت كلمات يفهم منها أن أيامها مضت ، وكانت تنفحصى وهى تتحدث بمينين فاجرتين ، بينما وقف الرجل اللبى يرقب المشهد فى صبر يوشك أن ينفد ، وفجأة جذبنى زهدى ، ومضى بى مبتعدا الى المصعد ، وكأنه فرغ من طقوس لابد أن يؤديها ، ولا يتوقع من ورائها شيئا ، ولا تتوقع المرأة من ورائها شيئا .. كأن اكون أحد زبائننا فعلا .

وقال لى زهدى وهو يفتح باب المصعد :

— ألا تعرفها ؟ منيرة بيجو .

قلت :

— سمعت اسمها يتردد بينكم .

قال :

— أشهر امرأة فى الاسكندرية .

كانوا يعرفونها ، وأحيانا يأتى أحد الاعضاء الى النادي ، وما يكاد يظهر حتى يختفى ساعة أو ساعة ونصفا على الأكثر ثم يعود . ويسأل بمجرد دخوله اذا ما كان أحد قد سأل عنه فى التليفون ، وعندئذ يعرف الجميع ، انه قادم من مغامرة بسيطة ، لقاء سريع ، وأنه قال لاهل بيته انه فى النادي ويريد أن يطمن الى أن زوجته لم تسأل عنه أثناء غيابه .. ولذلك غالبا مايقابلون العائد من المغامرة مهللين :

التليفون سأل عنك . فيصيح فيهم غاضبا .. ياولاد الكلب ياكدايين .. ولكنه يقلق ويضطرب حتى يقسموا له أن أحدا لم يسأل عنه ، أما اذا وقعت الواقعة وسألت الزوجة اثناء غيابه فلكل يتكاتف فى مواجهة الموقف ، لقد نزل ليودع أحد الضيوف الأجانب ، وسوف يصعد حالا ويتصل بك .. أو .. لقد كان موجودا هنا منذ دقيقة واحدة ولا ندرى أين ذهب لعله فى التواليت .. سوف نخبره ليتصل بك .. وهكذا تتلقى الزوجات اجابات التسوييف والمعالجة ، حتى يعود الفائب ، فيجربى لاهنا الى التليفون .. ويأجيببى تصويرى أنى كنت فى المكتبة ولم ينتبه أحد الى البحث عنى هناك .

وأحيانا ، كانوا يستقبلون العائد من المغامرة ، بسؤال قصير .

يسأل السائل :

— أزيها ..

ويجبب العائد :

— كويسة ..

ولكن مثل هذه المغامرات ، كانت تقع فى فترات متباعدة ، وقد تمضى شهور قبل أن يحدث شئ من هذا القبيل . وذلك طبيعى بحكم السن ، وظروفهم الاجتماعية . ولاشك أنهم كانوا يطمئنون الى منيرة بيجو ، لأنها كانت تتمتع بما يشبه الحماية من زهدى . ومع ذلك فلا بد أن اعترف بأن معلوماتى عن هذا الجانب من حياة هؤلاء الكهول من أعضاء نادينا ينقصها الكثير ، وهى لا تعدو سماع القفشات والتشنيعات العامة ، أما تفاصيل مايجرى من اتفاقات ومواعيد فكان يتم همسا وسرا ، ولم أهتم بأن أعرف عنه أى شئ ، حتى جاء ذلك اليوم ورأيت فيه منيرة بيجو بلحمها وشحمها ، وهامى تعود الى حديثها مع الرجل اللبى بينما يرتفع المصعد بنا الى الطابق السابع وأنا أرقب ذلك التحول الحاسم الذى طرا على زهدى ، لقد نسي تماما هجرة ابنه حسن ، وأصبح من المؤكد أنه فى غير حاجة الى وجودى معه لاسرى عنه ، لقد انطلق يثرثر وقد التبعت عيناه بفرح مبتذل وحشى ، عن كفاءة تلك المرأة منيرة وقدرتها على لقاء عشرات الرجال ، وكسب عشرات الجنيهاات فى اليوم الواحد . امرأة تعجبك ، أجدع من كل الرجال الذين ليسوا رجالا .. ما الذى لديهم يتباهون به .. هذه الذبول التى تتدلى من بين أفخاذهم ليتبولوا منها .. كان سليطا بذينا . وكنت أشعر بحرج شديد لانى لا أعرف كيف « انسجم » معه فى هذا المجال الذى ينطلق فيه ، وكنت أدرك من

تجاربى مع هذا النوع من الرجال ، أنهم عندما يتدفقون فى الكلام البدئ .. ممتزجا بانفعالات عاطفية ، فلا بد أن تبادلهم بذاءة ببداءة وتشاركهم هذا الابتذال متخلياً عن أى حاجز يفرضه تقاليد أو تربية أو ثقافة أو خجل طبيعى .

إذا لم تستطع أن تدوس على كل هذا ، وتندمج معه ، فسوف ينقلب ضدك حتماً ، ويهاجمك بشراسة . أنه لا يحتمل أن تتخلى عنه فى هذا الموقف الذى يتعمى فيه من كل القيم ، أنه لا يطيق أن تتفرج عليه ، أو تتعالى أو تنفر أو تتخجل أو حتى ترتبك ، ولذلك . فان نجاتى من تلك الحالة الخطرة التى انتابت زهدى كانت أشبه بمعجزة . وربما ساعد على ذلك ابتسامتى التى ثبتها على وجهى ، والقهقهة التى كنت أفتعلها ، ولكنها كانت لحظات عصيبة . قررت بعدها إلا أكرر مثل هذا اللقاء المنفرد بزهدى مهما كانت الدوافع والأسباب .

كانت شقة صغيرة ، تبدأ بصالة كبيرة ، تجمع بين مائدة الطعام وفريجدير وبوفيه ، وتشغل بقية المساحة كنبه ستوديو خضراء ومقعدان فوتيل مكسوان بالقطيفة الحمراء بينهما منضدة عليها راديو قديم ، وفى ركن بجوار نافذة ، جهاز التليفزيون . وكانت هناك بالطبع ، المكتبة التى جئت من أجلها ، ضحككت فى سرى لمنظرها ، فقد كان خيالى قد رسم فجأة صورة لمكتبة ضخمة ، تحوى مجلدات ومجلدات لعيون الأدب والشعر العربى ، ولكنها كانت درابا صغيرا ، حقيرا ، ظهرت فيه خمسة مجلدات حمراء ، لأجزاء متفرقة من الأغانى للأصفهاني ، وحيوان الجاحظ ، وصبح الأعشى للقلقشندي ، وكنت قد اقتربت من هذه السكتب وعبرتها بنظرة سريعة ، لأوجه اهتمامى - كما يجب فى مثل الحالة التى كنت أعانى منها - الى مجموعات من مجلات الصور العارية ، ووجدتنى أقول لزهدى فى محاولة ساذجة لارضائه والاندماج معه .

- هذه المجلات هى المهم ، لاكتب الأدب يا جنرال .
وقضم الطعم بسهولة . فقد فرح وصاح منذرا وقد أخذ كلمائى على محمل الجد :
- هذه لا أفرط فيها .. أنا أستخدمها .
وأنى بحركة بديئة .
قلت وأنا مزهو بالتمثيلية الصغيرة التى أقوم بها : - ولو مجلة

واحدة ..

فأخرج صوتا منكرا وقال :

— أبدا .. ولا واحدة ..

فتظاهرت بخيبة آمل . وقلت وأنا أشير الى المجلدات الحمراء :

— امرى الى الله . يكفينى هذا الجزء من حيوان الجاحظ ..

فنظر الى مستيريا وقال : — لماذا ؟

قلت : لان به قصصا عن العلاقات الجنسية بين الحيوانات .

فضاقت عيناه هاتفا :

— ولا هذا ايضا ..

ثم ضحك فى شراسة واضاف :

— هل صدقت انى اعطيك شيئا من هذه الكتب .. هل تظن انى

عبيط .

قالها وكأنه يقرر انه يملك ائمن كتب فى العالم .

ثم اضاف :

— ولكن .. سوف اقدم ماهو اهم .. ستتناول طعام الغداء

معى .

وأخرج من الفريجيدير بعض الاوانى الالومنيوم ، وساعدته فى

حملها الى المطبخ ليتولى تسخين الطعام ، وعرفت أثناء ذلك أن تلك

المرأة البدينة « منيرة بيجو » هى التى تعد له طعامه مرتين فى الاسبوع

وترسله اليه ليحتفظ به فى الفريجيدير ، وانطلق يشكو منها ومن

سرقاتها . انظر كم هى سمينة .. من أكلى الذى تنهيه .

ثم اضاف بلا أدنى حياء :

— انها أغنى منى .. ولو كان أحد غيرى لكان أخذ منها ، لا أن

يتركها تسرقه .

قلت له : لعلها تريد أن تتزوجك .

فصاح ضاحكا : لا .. تسرقى أحسن .

ثم قال : عيشة وسخة بنت شر .

وقد ردد هذه الجملة بعد ذلك أكثر من مرة ، وكأنها شعار أو

مبدأ ، وعندما ذهبنا الى المائدة ، هاجمنى الغص ، ربما بسبب قلقي

وخوفي منه ، وربما بسبب معرفتى أيضا ، أن تلك المرأة البدينة

الفريبة هى صانعة الطعام الذى نأكله ، وكان لابد أن أظهار أمامه

بانى مقبل على الطعام ، ولكنى تحصنت أيضا باعلانه انى اتبع ريجيما

خاصا يمنعنى من الاكل إلا بمقدار ضئيل .. ملعقة واحدة من

المسقة .. وملققة ارز .. وقد أصبح كل هوى هو أن أسرع
بالانصراف هاربا من هذا الكابوس ، لانهى ضلتي به ، ولا أعود
اليه أبدا .

واستطعت بالفعل أن أنصرف فور الانتهاء من الغداء ، رغم انه
الح فى أن يحضر لى بيجاما واستريح على الكنبة الستوديو ، فاعتذرت
لانى على موعد مع قريب قادم من القاهرة . كان استمرار مواجعتى
لابتذاله امرا فوق طاقتى ، قد احتمل البقاء معه ساعة أو ساعتين
.. ولكن اعظم ممثلى العالم يعجز عن الاستمرار فى أداء دور مرهق
طوال هذه الفترة وهو واقف على خشبة المسرح وحده .

وجاءت لحظة الانصراف ، وكان زهدى واقفا يودعنى عند
الباب ، عندما تفجر الموقف الانسانى الوحيد بينى وبينه ، فقد تجهم
وجهه ، وبدا عليه الالم ، وكان قد أمسك بيدى يصافحنى ، فظل
متشبها بيدى يضغط عليها بكفه ، كأنه يعتمد عليها ليحتمل الما يشعر
به ، وارتعشت شفتاه ، وهو ينظر فى عيني نظرات متوسلة ، نظرات
ضائعة .. وقال بصوت متحرج :
- اندرى لماذا هرب الولد .

نظرت اليه فى دهشة . وراعى أن عينيه يلتقيان بعيني ،
فيتشابك العيون أو لعلها تتعاق ، وسمعتة يقول كالمخاطب نفسه :
- يجب أن أواجه الحقيقة .. انا اعرف .. الولد يكرهنى .
لم أستطع أن أنبس بكلمة ، بينما عيناه تتوسلان الى أن أسعفه ..
بماذا أسعفه ؟ لا أدرى .

وهمست :

- ماهذا الكلام يازهدى بك ..
بدا وكأنه عجوز فى المائة .. وجهه المربع مكرمش ، وفسكه
العريض ، هابط متدل .. وعيناه تتسمعان لان الجفون تتهدل .. كل
شئ فيه يبدو وكأنه يساقط ..
وهو يقول :

- الولد يكرهنى موت .

قلت متعمدا أن تكون لهجتى حادة .. لعل حديثها تدفعه الى
التماسك ..

- كلام فارغ ..

قال هامسا : كأنه يبحث عن كلمات ضائعة :

- انا اعرف ..

وقبل أن افتح فمى .. رفع عينيه .. حولهما هالات زرقاء ،
وقال فجأة .. وعيناه كأنهما لا تعرفاننى .
— مع السلامة .

وأغلق الباب ، وكأنه يطردنى أو يهرب منى ، واتجهت الى المضعد
وأنا مرتبك ، وقبل أن أدخله ، رأيته وقد فتح الباب ، يخرج هاجما
على وهو يصيح .
— أنت لم تأخذ معك الكتب .

وجذبنى من يدى ، وكأنه لم يرفض أن يعطينها لى منذ قليل .
كان مصمما على أن أدخل الشقة ، وأحمل معى ما أريده من
مجلدات . وكان لابد أن أفل شيتا . وهكذا مددت يدى وجذبت
أول مجلد ارتطمت يدى به . ولم أعرف أنه الجزء الرابع من صبح
الاعشى للقلشندى حتى وصلت الى الشارع ، ومررت بباب شقة
« منيرة بيجو » دون أن انتبه اليه ، أو أتذكر وجودها . كنت منفعلا
بتلك اللحظات القصار التى التقت فيها عيوننا ، وهو يقول لى « ابنى
يكرهنى » .. كان صادقا . اعنى كان يشعر فعلا أن ابنه قد هاجر
صباح ذلك اليوم لانه يكرهه ، وهو اعتراف ليس هينا ، ويحمل فى
طياته مشاعر من الالم تكفى لان تغسل وتطهر كل مافى نفس زهدى
من ابتذال وبذاءة . بدا لى أنه يحتمى بالبذاءة ، مما فى نفسه من آلام
لا يحتملها البشر عادة .. كانت هجرة ابنه موتا من نوع قريب ..
انفصالا بين الاب والابن .. قضى على كل ماعاش به زهدى من قيم
وتقاليد .. ابنه لن يرثه .. ولن يكون استمرارا له من بعده ..
لا أرت ولا استمرار . بل انفصال وبتر .. وعلى زهدى أن يلقى
بكل حياته فى القبر الذى سيحتوى عظامه بما فيها من دود ينخرها ،
أو يفهم فى عمر متأخر — يكتن من المستحيل أن يتحقق فيه أى
من الفهم الجديد — أن حياته سوف تصب فى كل البشر .. كما يصب
الرافد الطمى فى النهر وكما يصب النهر فى البحر ، ويصب البحر فى
المحيط ، وتذكرت أن أصوغ هذه الجمل والكلمات فى رأسى حتى
أواجه زهدى وهو يتهمنى بأن افكارى نظرية .

وفى مساء ذلك اليوم ، حملت أخبار سفر حسن زهدى الى
اعضاء النادى . وكان زهدى قد تأخر ، وبدا أنه لن يحضر تلك
الليلة ، ورويت لهم فيما يشبه التشنيع الذى يقرحون به ، ذهابى
معه الى بيته ، وتناولى الغداء معه . ولقائى بمنيرة بيجو ، فضحكوا
وقال رءوف على ساخرا :

— انصحك بالابتعاد عن هذه المرأة والا ابتلعتك ..

فسألته متخائبا : وهل بلغتك أنت ؟
قال رافعا يده : أنا عندي القلب .
فصاح أكثر من واحد :
- منيرة بيجو .. كانت السبب ..
وقال آخر :
- أيامها كان اسمها منيرة فورد .
وعند خروجي أنا ورعوف من النادي ، قلت له ، وأنا ما زلت أفكر
في زهدى :
- ولكنه بكل تأكيد حزين ، وهو يتالم كان ابنه مات .
قال وميناه تضيقان :
- سوف ينسى كل شيء .. انه فاجر .
كانت مثل هذه المعلومات ، معلقة في رأسي ، بلا قيمة ولا أهمية
لها بالنسبة لي .. حتى ظهر « تو » في النادي .. وبدأت المس تلك
الصلة الغامضة بينه وبين زهدى ، وهي التي فسرها أعضاء النادي
همسا ، بأنها صلة تخابر أو شيء من هذا القبيل ، إلى أن وجدتني
ذاهبا مرة أخرى إلى مسكن زهدى في الأزاريطة لاستمع منه إلى
أصل حكاية تو .. وكنت بطبيعة الحال أتوقع أن يكون ما يقوله لي
كذبا في كذب ، وما كان هذا ليدهشني ، كان الذي يدهشني أكثر ،
هو اندفاعي بلا مبرر ، وبلا أي هدف . وراء فضول ملح لان أعرف
عن « تو » ما يظني هذا الفضول .

الفصل الرابع

عندما سمعت اللواء زهدى يقول لى أنه قتل والد « تو » لم أفهم او على الاصح لم اسمع مايقوله . فقد أصابنى الذهول ، او لعلى احتميت به ، من بشاعة ما اسمع . ومع ذلك كان على أن أواجهه ولكن بعد مرور بعض الوقت . وخلوت الى نفسى فى احدى الليالى ، واذا برعشة تسرى فى جسدى ، وصوتى يرتفع غاضبا صارخا ، ما هذا الذى سمعته ، وتبينت ليلتها ، أن شيئا ما قد أصابه العطب فى نفسى ، ولا أدرى كيف أعالجه ، وقلت لنفسى ، لو قد أصبت فى حادث ، أثناء ذلك السباق المجنون بين السيارة التى أقودها والسيارة التى كان يركبها « تو » وتهشمت لى ساق ، و تكسرت ضلوعى ، لكان الامر أهون ، فهناك أطباء ومستشفيات لعلاج مثل هذه الاصابات أما إصابة النفس ، ومواجهة العجز والعطب فيها فامر لا أدرى من يعالجه ، واين أعالجه ، أن الاضطراب يسيطر على تماما كلما تذكرت تلك الليلة التى ذهبت فيها مع اللواء زهدى الى بيته لاسمّتع منه الى حكاية تو . وأنا الآن أفهم تماما قوله لى عندما سألته أول مرة « لا تجلب المتاعب بدون مبرر » ، كان يجب على الا أتجاهل صيخته المحذرة ، او لهجته التى شعرت فيها بنبرة الم . ولكن كيف كان يخطر ببالي أن هذا الفضول الاخرق الذى جعلنى أجرى وراء « الميآن » ، سوف ينتهى بى الى ما انتهيت اليه . أن الاضطراب يعاودنى الآن ، وأنا أحاول إعادة تسجيل مارواه لى اللواء زهدى ، وهناك قوى فى داخلى لا تريد أن تسعفنى ، قدرتى على التذكر تتخلى عنى ، قدرتى على الصياغة تتشتت ، وأوجاع فى بطنى تهاجمنى ، ولذلك . أرجو أن يعذرنى من يتتبع هذه الحكاية ، ويقدر موقفى ، فيرضى بأن أقدم له مسودة كتبتهما لنفسى فى مناسبة سابقة ، ومن حسن الحظ أنى لم أمزق أوراق هذه المسودة ، وقد بحث عنها طويلا حتى وجدتها فى ثنايا مجلد « صبح الاعشى » الذى كان اللواء زهدى قد أهداه لى فى زيارتى الاولى لبيته . . وكنت قد كتبت تلك الاوراق لانشرها ، ولكن فى محاولة منى لمعالجة ذلك التشويه النفسى الذى أصابنى خيل الى وقتها أن الكتابة قد تساعدنى على الشفاء ، أو لعلها قد تكشف لى عن طريق للخلاص مما أعانى منه ، ولكن هيهات ، فالامر أقدح بكثير من أن تعالجه كلمات على ورق . وعلى أية حال ، هاهى المسودة ، كما عثرت عليها ، أنشرها

وانا لا اذكر تماما ماهو مدون فيها ، اذ انى لم آقو على مراجعتها او تصحيحها ، فكلما هممت بقراءة السطور الاولى أصابنى دوار .

المسودة

يجب أن أعالج نفسى ، يجب أن أتخلص بسرعة من هذا الاحساس المخيف بالعجز . وقبل كل شيء ، يجب أن أفهم بدقة ما الذى حدث ، ما الذى قاله لى اللواء زهدى فى بيته . المجرم الوغد يقول أنه قتل والد « تو » ، وهذا الاعتراف فى حد ذاته يحيرنى ، مامعنائه ، وما الذى دفعه لأن يقول أنه قتل ، هلك هو نوع من الزهو بأنه أشرف على عملية القتل ، أهو تأنيب ضمير ، أهو خوف بدأ يساوره فى نوايا « تو » نحوه . بعد أن سمع منى قصص تحديه لرجال الشرطة . على أية حال ، ان كل هذه المشاعر المتضاربة ، أو التفسيرات المتعارضة ، هى نوع من الرفاهية اذا ما قورنت بما أشعر به . الذى أواجهه الآن بمنتهى البساطة ، هو ان الرجل صاحب المبدأ يقتلونه فى هذا البلد الذى أعيش فيه بصفتى كاتباً ، ثم أسمع تفاصيل قصة قتله ، فأخاف ولا أجراً على أن أزعق بأعلى صوتى ، وان أعمل بكل قواى لواجه الجريمة وأطارد المجرمين . اكتفيت بمطاردة ابنه فى سباق طائش بالسيارات . انى أختنق ، لا لان الهواء ينقصنى ، فهانذا أفتح كل نوافذ البيت ، ومنظر البحر يمتد امامى الى نهاية العالم ، وأنوار مراكب صيد « المياس » تملو وتهبط ، ولكن الذى ينقصنى هسّو الافكار ، أو العزيمة ، أو الفهم ، أو فى الحقيقة ان الذى ينقصنى الى درجة الاختناق ، هو كل هذه الاشياء التى بغيرها لا يكون الانسان انساناً ، ما الذى فعلته بثقافتى ، ما الذى وصلت اليه بأدبى ، هل انا انسان شاذ ، وزهدى هو الرجل الحقيقى ، ببذآته ، وفجوره ، وقدرته على الاعتراف بالقتل الذى أشرف على ممارسته بالفعل . يجب ان أكف فوراً عن هذا الهراء الذى أكتبه ، الافضل ان أعمل هذه المصيبة ، بعقل بارد كما لو كنت ألعب دور شطرنج . نعم يجب ان أبدأ بوضع القطع فى مكانها من الرقعة ، وأرى كيف تحركت . وأدرس الموقف بدقة وعناية ثم أقدم على النقلة الصحيحة التى يكون فيها التصرف السليم ، والمهم هو أن أجذ النقلة الصحيحة ، والا ضعت ، فهذه فى الحقيقة ليست لعبة شطرنج ، انها لعبة الحياة والموت ، هيا تشجع واكتب المعلومات ، واجهها ، اقراها واجعلها

تفقا عينيك ، واذا لم تتحمل هذه المواجهة ، فانفض يدك ، واذهب الى بار النادي واسكر كل ليلة ، وتمتع بساعات البار كل ليلة ، وادفع الثمن من تليف الكبد ، وانهيار جهازك العصبى ، ولا خوف ، فالوت سوف يأتيك لا محالة ، سواء كان بالويسكى ، أو الشيخوخة ، أو الانتحار ، أو بالقتل على يد رجل مثل زهدى فى حفلة من تلك الحفلات التى يقيمونها فى السجن ، ومع ذلك ورغم أن الموت واحد فللواحد منا أن يختار . ترى ماقيمة هذا الاختيار . لو كنت أستطيع أن أقابل ذلك الرجل ، والد « تو » الذى قتلوه . لقد اختار أن يموت هكذا ، كان قادرا على الاختيار . هل أقول طظ . مات فى ستين داهية ، هانذا اشتمه بسفالة لم يجرؤ عليها زهدى نفسه . لانه فى الحقيقة يحرنى ويفيظنى . كأنه وهو يموت ، وهو يواجه القتل ، وهو يسقط لافظا أنفاسه الاخيرة ، يجذبنى الى حافة هاوية ويقول لى أن الحياة الحقيقية ، هى فى قبول التعرض للسقوط فيها . يقول لى أنك لن تحيا حياتك الكاملة وأنت فى مأمن تام من الخطر ، يقول لى أن هناك لحظة تكتمل فيها كل الحياة ، فلا يكون هناك معنى للتخلى عنها مقابل نصف حياة أو ربع حياة ، ويصبح من الافضل على من فاز بلحظة الحياة الكاملة أن يموت ، ليصون ماحقه من اكتمال . هل هذا صحيح ، على العموم لقد جربت شيئا من هذا القبيل . وأنا مندفع بالفاروميو فى شوارع الاسكندرية بسرعة مجنونة . كنت أواجه الموت فى أية لحظة ، وأنا لأهتم ولا أعى بأن هناك خطراً محققا . كنت اشعر أنى فوق كل مافى هذه الدنيا من قوانين ونظم سائدة ، كانت قوى مجهولة اكبر بكثير من القوى التى يعرفها الانسان فى حياته العادية الرتيبة تدفعنى وتملؤنى بطساقة جبارة لا منطق لها ولا حدود . . نعم أن الانسان يقبل مخاطرة الموت لمجرد أن يسبق سيارة مجاورة ، هكذا ببساطة ، يندفع مصطدما بقطار ، يعبر مزلقانا للسكة الحديد ، أو يحطم حاجز الكورنيش ، ويتحطم بسيارته على صخور شاطئ البحر . أن يسبق سيارة أخرى بثلاثة أمتار أهم عنده من الموت . أنه لن يحصل على مال ولن يكتسب طعاما هو محتاج اليه ، أنه لا يموت دفاعا عن حياته ، بل هو يموت لانه يريد أن يحيا لحظة ما ، تكتمل فيها حياته . هل تكتمل حياتى فى سباق سيارات ، هذا غير معقول . واذا كنت قد عرضت حياتى للخطر فى السباق ، فكان همى الاول ، هو أن التقى بهذا الشاب « تو » . هل يعنى هذا أنى مستعد لان أعرض نفسى للموت ، من

أجل أن أتعرف على إنسان ، أى إنسان ، أتعرف عليه معرفة حقيقية ولكنى لا أذكر أنى كنت أسعى إلى التعرف إلى « تو » ، كنت أريد أن أعرف عنه ، أن أثبت سره ، وأن أكتشف حقيقة أمره ، وهل هو من رجال المخابرات أو شئ من هذا القبيل أم لا . ولكنى أشك الآن فى أن هذا كان مقصدى . لابد أن « تو » كان يحمل فى داخله شيئاً يجذبنى إليه . لعلنى شعرت بهذا الشئ على نحو قامض ، فى نظراته أو فى لهجته السريعة المتلثمة ، أو منذ أن قال لى وعيناه تضحكان أنه يكون مسرورا إذا قال لخصمه « كش مات » لقد خطر لى ساعتها أن أسأل عن خصومه الذين يكرههم إلى درجة أن يتمنى موتهم . ومازلت أذكر نظراته الطويلة القريبة التى واجهنى بها وأنا أقول له أنه ليس فى حاجة إلى رقعة شطرنج ليقول « كش مات » فهل كان ذكر الموت ، رغم أنه جاء بطريقة عابرة فى حديثى معه ، هو الذى جعلنى أسعى إلى الاقتراب منه والتعرف إلى هذه الحياة اليافعة فى الخامسة والعشرين ، وكيف تتعامل مع الموت وتفهمه . من يدرى . أن الأسئلة لن تنتهى ، وأنا أتعلم الآن أثارها ، حتى أهرب من مواجهة ما يجب أن أواجهه ، وهو تدوين كل ما عرفته من أحداث عن مقتل والد « تو » .

الحكاية بدأت هكذا ، قال لى زهدى أنه كان مديرا لسجن . . . فى أواخر الخمسينيات ، عندما جاءت تعليمات من المصلحة ، بالاستعداد لاستقبال دفعة من المساجين السياسيين . وكانت الليلة المحددة للعملية ، هى ليلة رأس السنة فى الساعة الثانية عشرة بالضبط ، وعندما تطفأ الأنوار اعلانا بانتهاء سنة ، وبداية عام جديد ، وبينما الناس أمثال هؤلاء السياسيين المثقفين ، يحتفلون ويشربون الأنخاب لانهم جميعا كفرة يشربون الخمر ، سوف تهبط عليهم حملات الشرطة كالصاعقة فى البيوت التى يحتفلون فيها ، وهى طبعا خطة بارعة ، لانهم متجمعون فى بضعة بيوت ، عند الأثرياء منهم وهذا غريب جدا ، هكذا قال لى زهدى الذى لم يفهم كيف يتورط أولاد ناس أثرياء ومن عائلات كبيرة فى مثل هذه الأمور التى تنتهى بهم إلى المعتقلات والسجون ، والأغرب والأدهى ، أنهم يطالبون بأن تستولى الحكومة على ممتلكات عائلاتهم . أولاد فاسدون ، ملحدون أغلبهم بنظارات من كثرة القراءة والكلام الفاضى ، ولا أحد يعطف عليهم وأغلبهم مصاب بالشذوذ الجنسى لانهم يؤمنون بالحياة البزميط وكان زهدى فى قمة الضيق بالموعد المحدد لوصول المعتقلين . فقد

كان مدعوا عند صديق له فى المعادى تعود أن يقضى رأس السنة عنده مع شلة الاصدقاء ، قد لا يلتقون طوال العام الا فى هذه المناسبة ، وكانوا يحتفلون احتفالاً رهيباً ، سكرة بنى . كان يشرب وحده زجاجة ويسكى لابد أن تكون « جراند ماركيش » وكان يتفاعل بهذه السهرة ولكن اولاد النحس افسدوا الترتيب وكان عليه أن يرتب للحفلة التى يستقبلهم بها . وكان لابد أن تكون حفلة من النوع الثقيل . وهى تحتاج الى خبير يتولى تنظيمها ، ويجرى لها البروفات قبل وصول الضيوف ، وكان فى مصلحة السجون « خبير يعجبك » اسمه شوكت ، هو الوحيد الذى كان يعرف كيف يرحب بهم . تركى وسيم اشقر ، شكله حلو ، وبينى وبينك هو . أيضاً معروف عنه أنه عريق فى الشدوذ الحسى . . ولا يجب أن ادهش فالمثل يقول ، لا يفلى الحديد الا الحديد ، ومصلحة السجون تتعامل مع أوسخ اصناف البنى آدم ، ولذلك فهى تستعد لكل نوع رجال من نفس نوعهم . القتلة لا يشكهم الا من كان قاتلاً مثلهم ، لا بهم أن يكون قاتلاً بالفعل ولكن لابد أن يكون عنده استعداد لان يقتل فى اية لحظة ، اذا ماهاج او تمرد المساجين . وكان شوكت هذا ، له شهرة مدوية ، كان قد درب فرقة من الوحوش ، تعمل تحت أمره . ويذهب بهم الى اى سجن فى المهام الخاصة ، وقد جاء مع فرقته ، وبدأ يجرى البروفات فى هذا العنبر سوف يدخلون . ثم يهجم عليهم بعض الرجال ويدهم الهراوات ، صارخين فيهم أن يتجردوا من ملابسهم ، بلا تأخر ولا ابطاء . يجب أن يصبح كل واحد بلبوسا بغير أى تردد ، أو تفكير فيما يفعله ، ثم يدفعوا تحت ضربات الهراوات الى حوش السجن ، ليمروا بين صفيين من رجال الفرقة ، وهم يحملون ملابسهم مكومة فوق رؤوسهم ، وطبعاً ، لابد أن يرفع الواحد منهم كلتا يديه حتى لا تسقط كومة الملابس ، وكذلك يصبح جسمه للمعارى اللط معرّضاً للضرب ، فى أى موقع ، وهو يجرى ، حتى يدخلوا واحداً واحداً فى عنبر آخز ، فيستقبلهم الحلاق ، ويأمرهم بالجلوس القرفصاء ، ويحلق شعرهم نمرة واحد . ثم يستلم من يحلق ملابس السجن . هذه هى باختصار ترتيبات الحفلة ، وقد أجرى شوكت البروفة ، وبدأ أن كل شىء على مايرام . . وما كان زهدى يتوقع أن تحدث مشكلة . فهذه الحفلة رغم ضخامة ضيوفها وأهميتها تقليد متعارف عليه ، وهو ضرورى لان النزلاء لابد أن تواجههم منذ اللحظة الاولى صدمة صاعقة تكسر شوكتهم ، وكلما كانت الصدمة قوية وشديدة ،

كلما سهلت الامور فيما بعد ، والحفلة الناجحة يتوقف عليها الكثير
فى تحديد العلاقة بين المساجين وادارة السجن ، خاصة اذا كان
المساجين من المثقفين وكلهم عقد ، فهم يواجهون السجن بشعور
قوى من التحدى ، واحيانا يهتفون أو ينشدون اناشيد جماعية
ويتظاهر بعضهم بالبطولة ، وقد يكون لبعضهم تأثير على السجنائين
الغلبة ، أو حتى على الضباط الصغار الذين خرجوا حديثا من
المدرسة . . وقد يتساءل هؤلاء الضباط فيما بينهم عن السبب
فى الاعتقال وجدواه ، أو يدخلون فى مناقشات غير مرغوب فيها
حول الافكار التى يعتنقها هؤلاء المساجين . وقد يؤدى هذا اذا لم
يضرب من البداية ، الى تعاون يؤدى الى كارثته ، هرب أو تهريب
يساعد فيه السجنان ، أو الضابط الصغير . لذلك يصبح من المحتم
أن تقول أنا هنا ولا أحد منكم يا أولاد الكلب يستطيع أن يرفع صوته ،
أو يقول أنا رجل ، مسألة نظام ومسئولية ، وآلا انقلب الحال الى
فوضى . . انها معركة بين ارادتين . ارادتى أنا . . أو ارادة السجنين ،
ولذلك لابد من قهره ، اذلاله وكسر ارادته ، لابد أن تكسر عينه . ثم
بعد ذلك تروح ، لانه يصبح كالعجينة الطرية تشكلها كما تريد . هذا
هو الهدف من الخطة . . وكان يجب أن أشهد حفلة كهذه . قالها
زهدي وهو يضحك . مستدركا أنه لا يعنى أن أراها كأحد المدعوين ،
ولا أقول أن ضحكته أفزعتنى لاني كنت أسمع ولا أسمع ، وما أدونه
الان لا أدري كيف أتذكره ، المهم هو أن الحفلة بدأت بالفعل ، واصطفت
فرقة شوكت فى اماكنها ، بينما دخل المدعوون العنبر ، وانهارت
عليهم الهراوات والصرخات تأمرهم بالتجرد من ملابسهم . ثم خرجوا
مهرولين الى الحوش ، وشوكت فى قمة تلذذه ، كأنه يشتهي مايراه ،
أشتهاء جنسيا حادا ، وقد انطلق وحوشه يفتكون بالضسيوف
العراة ، الذى يسقط فيركلونه بالاقدام ، ويدفسون بالهراوة فى
مؤخرته ، والذى تهشم نظارته ، فيمشى كالاعمى يواجه الركلات
واللطمات ، والذين يبولون على أنفسهم من هول مايلاقونه ، وهم
لا يدرون مايفعلون ، والويل لذلك الرجل العريض الطويل ، لابد أن
يركع ويخضع ، ويأمره شوكت فى مرح ونشوة أن يصيح بأعلى
صوته أنه امرأة . وترى كيف أن هذا الحشد ممن يقولون عنهم أنهم
مثقفون وسياسيون وأبطال مجرد كومة هشة من اللحم والعظم الذى
لا يساوى ثلاثة مليمات ، ويفهم كل واحد فى السجن مكانه . السجنان
لم يعد يخشى هذا الافندى المتعلم ، بعد أن رآه عاريا راکعا صارخا

انه امرأة . الضابط الصغير ، ينسى كل شيء عن تلك الافكار التي في
رعوس هؤلاء المدعورين النهارين ، وكذلك المساجين انفسهم يفقدون
على هذه الصدمة من الحياة التي كانوا فيها منذ لحظات . والتي
كانوا قد تعودوا عليها . النوم في فراشهم مع زوجاتهم ، وبين اولادهم
بعضهم كان يسكن سرايات وقصورا ، ويملك سيارات فارهة فاخرة ،
كانوا يستخدمونها في توزيع المنشورات والكتب ، كل شيء ينتهي في
لحظة بفضل الحفلة ، العادات تتحطم ، دخول الحمام في الصباح ،
وحلق الدقن امام مرآة وحوض في حمام من القيشاني ، دخول الافطار
له في السرير وشرب الشاي مع قراءة جرائد الصباح ، الكلام في
التليفون ، اختيار رباط العنق المناسب ، والخروج الى الشارع ،
وضجة الحياة وطعمها الخاص ، كل هذا ليس من السهل أن تتغلى
عنه فجأة وفي يوم وليلة ، تجد نفسك على برش في زنزانة ،
ولتساعدكم على مواجهة الحقيقة ، والاعتراف بالواقع الذي أصبحوا
فيه . . لابد من وضع الحديد في ايديهم ، وربطهم في سلاسل ،
لابد من خلع ملابسهم المدنية فورا ، ويبدؤون الحياة الجديدة عراة كما
ولدتهم أمهاتهم ، انهم يولدون من جديد ، بملابس جديدة ، ومظاهر
جديدة ، والى جانب هذه المظاهر ، هناك ما هو أهم ، وهو ما في داخل
نفوسهم ، لقد تعودوا على اسلوب معين في التعامل ، شغل المثقفين
لا مؤاخذه ، مناقشات ، وآراء وافكار ، وكل كلمة تقولها يردون عليها
بعشر كلمات ، وكل واحد يظن انه زعيم كبير . ولابد من ضرب هذا
الوهم ، وإذا لم تضربه فورا ، وتخلصه منه ، فسوف يتسلب
نفسيا عذابا بطيئا لارحمة فيه ، سيصبح كالمجنون تماما ، يجلس على
خازوق ، ويتصور انه بطل ، لذلك لا تظن أن مانفعله قسوة ، أبدا ، هؤلاء
ناس ماتوا وانتقلوا الى حياة أخرى هي حياة السجن ، ولابد أن
يتأكدوا بمظاهر مادية محسوسة من أنهم في السجن ، وأن هناك من هو
أقوى منهم ، وقادر على اخضاعهم ، والبطش بهم في أية لحظة ،
انه نفس المنطق الذي يقوله ابن البلد عندما يذبح قطة ليلة زفافه أمام
عروسه ، حتى تعلم من الليلة الاولى ، انه قادر على ذبحها مثلما فعل
بالقطة ، إذا لعبت بذيلها أو زاغت عيناها هنا أو هناك .

ان زهدى يتصور - هكذا ببساطة - ان هذه الافعال طبيعية ،
وأنها من أصول مهنته ، هي جزء من فن ادارة السجن ، قال ان هذه
المعاملة التي يعامل بها المسجونين السياسيين لا تختلف عما يحدث
في الجامعات الاوربية والامريكية ، عندما يدخلها الطلبة الصغار

لاول مرة ، فيهمج عليهم الطلبة الكبار فى حفلة استقبال ويشبعونهم ضريبا وبهدلة ، ويعاملونهم بقسوة ويمزقون ملابسهم او يضربونهم بالشنلايت ، او يكلفونهم بالقيام بأعمال مهينة ، كل هذا حتى يمييق الصفار القادمون من أحضان أمهاتهم ، ويتخلصوا من طفولتهم الكامنة فى نفوسهم ، ويتحولوا بهذه العملية التى ظاهرها القسوة وباطنها الرحمة الى رجال ، وطبعيا كان الذى يهمه من هذه المقارنة هو فلسفة التغيير بطريق الصدمة بصرف النظر عما اذا كان تغيير أطفال ليتحولوا الى رجال ، او تغيير رجال ليتحولوا الى كومة لحم وعظم لا تساوى ثلاثة مليمات ، ثم انطلق يزوى لى مقدمات القتل ، فقال أنه شخصيا لا يتدخل للضرب بيده ، ورغم طول السنوات التى قضاها فى الخدمة سواء فى الاقسام او السجون ، فانه لم يضرب احدا ، لا فى قسم شرطة ، ولا فى سجن ، لانه من المدرسة التى تعتمد على الهيبة ونفوذ العقل والدكاء ، ولا تحتاج الى استخدام القوة المادية لمواجهة المجرمين العتاة ، تكفيه نظرة او كلمة ينطقها بلهجة خاصة ، وبصوت من طبقة معينة ، حتى يرتجف المذنب وينهار ، والمسألة فى نهاية الامر مسألة تخصص ، فاذا احتاج الى استخدام الوسائل المادية ، فهناك المتخصصون فى ذلك ، وعلى رأسهم شوكت ، رغم أنه هو أيضا لا يمارس الضرب بنفسه ، ولكنه يجيد تدريب رجال فرقته على هذه المهام ، ويكتفى هو بالتلذذ برؤية الرجال ، يفقدون رجولتهم ضربا ، أو اذلالا ، أو اعتداء عليهم . مرة أو مرتين ، وجد فيها زهدى نفسه مضطرا الى أن يضرب بنفسه ، عندما تبلغ وقاحة المذنب حدا لا مغرفيه من مواجهته ببطش مبشر فورى . ولكن العملية لا تتم بالفعل ، فهى تحتاج الى خبرة وحكمة ، وتمهيد وترو ، فأكبر خطأ تقع فيه هو أن تضرب وانت منفعل ، فى هذه الحالة تكون قد وقعت فى الفخ ، لان انفعالك يجعل منك ندا للمضروب ، وهو اعتراف ضمنى بأنه هزك أو جرحك فأغضبك ، وائر فيك ، وهذا لا يصح ولا يجوز ، ان المذنب حقير فى اسفل سافلين ، وهو لا شىء ، فكيف يؤثر هذا الاشىء فى الرجل الذى يتحكم فى مصير ، غير معقول ، لذلك يحتاج الامر الى هدوء ورزانة ، وعندما ضرب زهدى ذلك الولد الوقح الذى كان يظن نفسه قادرا على تحدى الاوامر ، وينظر فى وقاحة الى من حوله ، مستهينا بهم ، وكأنه لا يهمه شىء ، قرر أن يفعل ذلك حسب خطة مدروسة ، فاقترب من الولد الشقى ، ثم وقف أمامه غير ملتفت اليه ، وتعمد أن يتحدث بصوت هادىء جدا مع ضابط زميل له فى

القسام ، وأثناء ذلك ، كان يرفع قامته ، ويجمع ارادته ، ويركز كل تفكيره فى الضربة التى سيوجهها ، ثم التفت الى الولد يرشقه بنظرة حادة متعمدا أن تكون عيناه مصوبتين فوق عينى الشقى ، ورسم على شفتيه ابتسامة هادئة .

وقال له : باه انت موش عاجبك الحال هنا ، وقبل ان يجيب الولد ، رفع زهدى يده مشيرا الى شىء ما فى سقف الحجرة ، مخاطبا زميله الضابط ، وكأنه لا يعنيه ماسوف يسمعه من وقاحات الولد ، وفجأة وبسرعة خاطفة ، منتهزا فرصة أن الولد رفع عينيه متتبعا اشارة يده الى السقف ، وجه اليه ضربة ساحقة بكف يده على خده .

وهنا يجب أن نلاحظ أن هذه الضربة تحتاج الى مهارة فنية ، فلو هبطت بكفك على خد الزبون واستقر الكف طويلا على الخد ، فالضربة تفقد قدرا كبيرا من قدرتها ، لابد أن تضرب بطريقة الرج ، أى تهبط الكف بكل ثقلها على الخد وفى نفس الوقت لا تستقر ، بل تحدث رجة وانت تسحبها بسرعة ، هذه الرجة فيها كل الفائدة . وهكذا تكوم الولد ساقطا على الارض ، الضرب فن دقيق ، ويتطلب من الشخص الذى يمارسه قدرة كاملة على التحكم فى اعصابه .

هذه قاعدة اساسية من يخرج عنها يعرض نفسه للوقوع فى أخطار حتى لو كنت تضرب امرأة ، وهو يعرف طبعا أن الرجل الحقيقى لا يضرب المرأة . الا اذا كان من باب المناغشة وتهيئة الجو ، فهناك بين النساء من يتلذذن بالضرب ، وبينهن مالا ينصلح حالها الا اذا أكلت العلقة الساخنة .

وتأديب المرأة بالضرب امر معترف به شرعا ، اكسر لها ضلعا ، يخرج لها مكانه ضلعان .

ذات يوم ضرب زهدى تلك المرأة الضخمة القوية منيرة بيجو ، كانت تظن أنها تستطيع أن تضحك عليه ، ولكنه قطع حديثه عن منيرة ومضى يقول أنه أسهب فى شرح حكمة الضرب وفنونه ، ليضعنى فى الصورة ، ولا فهم كيف حدث ذلك الذى حدث ، وانتهى بمقتل والد « تو » .

فقد كان السبب المباشر لمقتله ، هو انفعال شوكت ، رغم أن هذا كان أمرا غير محتمل الوقوع ، لولا أنه اتهمك فى تلذذه ، ونسى نفسه وهكذا شاعت الظروف ان تقع الواقعة .

الفصل الخامس

كانت الحملة في ذروتها ، الاجساد العارية تنساقط في الحوش تحت ضربات العصي ، ثم تنهض مسعورة لاهثة ينهشها الفرع ، لتسقط من جديد ، والواحد منهم ، يركع تلو الآخر عند قدمي الخلاق الذي يخلق له شعره . وكان البعض قد تسلم بالفعل ملابس السجن وأسرع يرتديها ، وقد أصبحت بالنسبة له ، في تلك اللحظة ، نعمة تهبط عليه من السماء ، وملأذا يحتمى به من الهول الذي رآه . وكان زهدى قد بدأ يشعر بالملل ، فقد شبع وحصل على كفايته ، وكان ينظر في ساعته بين لحظة وأخرى ، وهو يفكر في اللحاق بأصحابه في المعادي ، ليشرب له كأسين حان موعدهما ليتم الانسجام ويكتمل المزاج ، وهو يعترف بأن المشهد الذي رآه ، قد حرك غرائزه ، فراودته رغبة جامحة ، في أن يفاجئ أصحابه في المعادي وهم سكارى ، فيطيط بهم كما يشاء ، وأن ينتهز الفرصة فيصفع كل واحد منهم على قفاه ، كان زهدى وهو يتحدث عن أصدقائه على هذا النحو ، يؤكد لي مرة أخرى ، اني أمام رجل لا يستطيع أن يتعامل مع الآخرين ، ولا يعرف كيف يعبر عن نفسه ، الا من خلال تبادل الشتائم والاهانات وقد علمني زهدى أنه اذا كان للانسان تلك الافاق السامية الرجبية من الكرامة وعزة النفس والمثل العليا ، وهي مجالات لا يستطيع أن يصل اليها حيوان آخر غير الانسان ، فان الانسان أيضا عنده استعداد للهبوط الى هوة سحيقة من الانحطاط والسفالة والحقارة ، يعجز الحيوان ، بل تعجز الحشرة الدنيئة ، عن التردى فيها . فلا أظن أن صرصارا يتلذذ بضرب صرصار آخر على قفاه ، ان في نفوسنا نحن البشر طاقات من الخير والشر ، والنبيل والسفالة ، والسمو والحقارة ، بحيث أصبحت حياتنا في كل لحظة ، مسرحا لمعارك لاتنتهي بين النقيض وتقيضه سواء كانت المعارك من حولنا ، أو داخل نفوسنا . على أية حال ، لم يات بعد الوقت الذي أرتى فيه البشر ، والاجدر بي أن أمضى في تسجيل المعلومات ، فبينما كان زهدى يستعد لانهاء الحلقة ، كان شوكت يتابع المشهد بكل حواسه وجوارحه

وهو يتمايل بجسده طربا . وكان الانين والصراخ وصوت ارتطام الهراوات بالعظام ، ولهاث الضاريين والمضرويين موسيقى حارة دافقة قد استولت عليه كما تستولى دقات الزار على امرأة ركب جسدها عفريت . وأدرك زهدى أن الصعوبة الحقيقية فى إنهاء الحفلة ، هى فى افاقة شوكت من نشوته . وهو الوحيد القادر على اصصدار الاوامر لوحوشه بالتوقف ، فقد أنتشى هؤلاء الوحوش باللحم والعظم الذى يفترسونه ، واهاجتهم صرخات الالم ونافورات الدم التى تنشق هنا وهناك . وادار زهدى بصره فى جولة فاحصة لمسرح الحفلة ، وهو يجمع قواه ، ليتخذ قراره بان يتدخل لدى شوكت ويقول له كفى . وهنا حدث شيء لم يتبين زهدى حقيقته اول الامر ، فقد وقعت عيناه على شخص يرتدى الملابس المدنية ، وكان واقفا ينظر فى هدوء الى مايجرى حوله ، وكان لا شأن له بالامر . ويقول زهدى ان تلك اللحظة مرت به فيما يشبه الحلم ، وهو يعجب كيف أن رجلا خبيرا مثله ، يرى ذلك الشخص فلا يفتن على الفور الى حقيقة امره كان رجلا قصيرا ، ربعة ، له رأس ضخم ، والتقت عيناه زهدى بعينيه ، ولم يحدث أن ظهر أى نوع من الخوف أو القلق فى عيني الرجل ، لو كان زهدى قد شعر أن الرجل قد ارتبك لفهم فى الحال حقيقة الامر وهو الذى تعود أن ينهش اعماق المذنب ويهتكها بنظرة واحدة . أن عينيه تشمان مثل أنفه ، انها تشم رائحة القلق ، ورائحة الخوف ، حتى لو اخفاه من يعانى منه . كان الرجل يرتدى بدلة بنية وقميصا سكروته ، ورباط عنق أخضر ، ويقول زهدى ساخرا من نفسه ، ان كل الذى جلب انتباهه فى تلك اللحظة ، هو رباط العنق الاخضر ، فقد فكر فى انه رباط أنيق ، وتساءل ترى من أين يكون قد اشتراه . مجرد تساؤل هابر ، انشغل بعده تماما بما يجسرى امامه من أحداث كانت تبدو لحظتها اكثر اثارة وصخبا . وكان شوكت يقف على بعد مترين من زهدى ، متفمسا فى ملذاته واعجابه بوحوشه المدربين والعرض الباهر الذى يقدمونه . ولعله هو الآخر قد رأى ذلك الرجل ذا رباط العنق الاخضر فلم ينتبه اليه . هكذا شاءت الاقدار ، أن تدخر مفاجأة لنهاية الحفل ، ليست فى حسابان أحد ، فمن كان يتصور شيئا خارقا وغير عادى الى هذه الدرجة ، هل يعقل أن يكون وسط هؤلاء العسرايا ، شخص رفض أن يخلس ملابسه ، هل يعقل أن يكون هناك من فكر فى تحدى الهراوات والاوامر الهادرة ، أن تصور هذا أمر مستحيل ، فما الذى يستطيع أن يفعله

هذا الاخفق امام هذه القوة الرهيبة وهو أمزل لا حول له ولا قوة .
لو فكر لحظة ، لعرف أن فعلته هذه سوف تنتهى بسحقه تماما ، وأنه
سيلقى من الاهوال ما يجعله يتمنى لو لم يولد أبدا . ومع ذلك فقد
نجح فى خطته لبعض الوقت . لان الجميع ، من العساكر والضباط
لم يخطر ببالهم أن هذا رجل لا يدعن للأوامر ، أن الامور كانت تجري
حسب الخطة الموضوعة ، وحسب البروفة المتقنة التى أجسراها
شوكت ، ولم يضع أحد فى حساب الخطة ، ولا فى البروفة ، أنه
عندما تصدر الأوامر لهم بأن يخلعوا ملابسهم ، أن واحدا سوف
يتخلف ، طمعا كان المتوقع أن يترددوا أو يتلکاوا ، فأغلبهم لم يخلع
ملابسه ويقف عاريا فى مكان عام من قبل ، ولواجهة التردد ، يبدأ
الضرب فورا فى نفس اللحظة التى تصدر فيها الأوامر ، وعندئذ
ينصاع الجميع ، وهكذا اندفع رجال شوكت يضربون كل العراة ،
الذين يحملون فوق رؤوسهم كومة الملابس المخلوعة ، أصبح الهدف
واضحا ومحددا ، وهو اللحم العارى ، والأذرع الممتدة فوق الرؤوس
والسيقان المرتعدة ، والأجساد المدعورة القافزة فى الهواء أو الساقطة
على الأرض . أصبحت كل العيون وكل الأيدي القابضة على الهراوات
تجرب بطريقة آلية مطاردة هذه الأهداف المحددة والمتفق عليها . لقد
سقط الجميع فى اطار الحفلة ، بشقيها : فرقة الضاربين ، وجماعة
العراة المضروبين . ولذلك لم ينتبه أحد الى وجود هذا الشخص الذى
ظل خارج الاطار المرسوم ، وكان من الممكن فى مثل هذه الظروف
المحمومة الا ينتبه اليه أحد حتى نهاية الحفل . وكان من الممكن ان
يتدبر أمره بعد ذلك مع سجان يعطف عليه . وينضم الى زملائه
محتفظا بهيبته ، وان كان هذا أمر يصعب تصوره وفهمه ، ولكن ماذا
تقول امام تصارييف القدر والأعيبة الغريبة ، التى جعلت الجميع
لا يبصرون ما يرون امامهم .. وتقدم زهدى وأمسك بيد شوكت
وهزها ، فلما انتبه اليه ، نظر اليه بعينين مغمعتين بالسرور والامتنان
ويقسم زهدى أنه رأى فى عيني شوكت ولها وحنانا أنثويا ، وقد مد
يده تضغط على يد زهدى وتفركما كأنه يدموه دعوة صريحة الى
فراش .. فلم يتمالك زهدى إلا أن يهمس فى أذنه واصفا اياه بحقيقة
أمره ، فغمز له شوكت بعينه ، فقال له زهدى أنه قد آن الأوان للانتهاء
من هذا الامر كله ، فبدأ على شوكت الاسى ، والاستعطاف ، قال له
زهدى أنهم هلكوا ، وأن رجاله قد نالهم التعب ، وكان شوكت يهرب
بعينه حتى لا يسمع ، وفجأة اعتدل فى وقفته ، وتسمرت عيناه فى

اتجاه واحد لا يتغير ، وشحب وجهه وفتح فمه فى غباء ، ونظر زهدى فى نفس الاتجاه ، فرأى ذلك الرجل القصير الربعة ... الضخم الراس ، ذا البدلة البنية ورباط العنق الاخضر . وعندئذ فقط ، فهم زهدى ، وأدرك دفعة واحدة سر الرجل .. وكان أول ما قاله بيثه وبين نفسه أن هذا الرجل قد مات بالفعل .. ورغم أن شيئا لم يحدث بعد ، فقد شعر بانقباض . وفى نفس الوقت نشط عقله . وقد هاجمته دوامة من الصور .. كان يرى الرجل صريعا ، وكان يرى أصحابه فى المعادى سكارى . وكان يرى شوكت شاحبا واجما وكان انقباضه يحدثه حديثا هامسا بأن هذه الليلة لن تنتهى على خير ، وقبل أن يتخلص من هذه الدوامة ، رأى شوكت يتقدم ببطء نحو الرجل ، ولم يستطع أن يتحرك وراءه ، ظل جامدا مكانه يرقب الرجل وهو يصوب نظرات ثابتة جسورة ، فى اتجاه شوكت ، كان الوقت قد فات لمن يحاول أن يمنع الصدام ، ثم يعود زهدى ويقول بصراحتة الحيوانية ، أنه كان يترقب هذا الصدام بشغف ، وكأنه لو تدخل ، سوف يحرم من متعة نادرة ، تفوق متعة سماع أم كلثوم فى حفلة من حفلات العمر . نظرات الرجل ، وذلك الفصل العجيب الذى أقدم عليه ، جعل من لقاءه بشوكت مباراة مثيرة ، أنك لا تستطيع أن تفسد مباراة الموسم بين الاهلى والزمالك ، أو توقف بطولة العالم بين محمد على كلاى وجو فريزر ، قال زهدى أنه بعد مضى كل هذه السنوات ، لا يريد أن يخدعنى ولا أن يخدع نفسه . وانه كان يتمنى أن يحدث الصدام ، وأن يتمتع بحدوثه ، وأن كل ما كان يخشاه هو احتمال انهيار الرجل بسرعة أمام شوكت ، وأن هذا الانهيار سوف يكون مخيبا لتوقعاته فى الحصول على مزيدا من المتعة والاثارة ، وهى متعة فيها ايضا رغبة فى الانتقام والاثارة ، وهى متعة فيها ايضا رغبة فى الانتقام والتشفى من هذا المخبول الذى تحدى هيبتهم .. لابد أن يسقط ، وأن تهشم أنفه فى أرض الحوش ، وسوف يكون جسده المربع ورأسه الضخم الذى يشبه كتلة الصخر ، شيئا مناسبا لتلقى ضربات الهراوات وركلات الاقدام . كان شوكت قد وصل الى الرجل ، وعندئذ فقط تقدم زهدى خطوات ، ولكنه ظل محتفظا بمسافة كافية بينه وبين الرجلين . والغريب أن أحدا من رجال شوكت لم ينتبه حتى تلك اللحظة الى ما يجرى وما سوف يحدث . وزملاء الرجل كانوا فى حالهم وليست لديهم أدنى فرصة ليدركوا شيئا تغير الذى يلاقونه فى المعركة .. ومضت لحظات ، وشوكت واقف يتأمل الرجل

وليس بينهما أكثر من شبرين : العين فى العين .. وقد ثنى شوكت وسطه فى وقفة متخلعة ، والرجل لا تتحول عينه عن شوكت ، لا يهتز له رمش .. وقد ظهر الآن أنه كبير فى السن ، يبلغ الخمسين من عمره ، شعره أشيب ، وصدق حدس زهدى فى أنه من المدرسين فقد اتخذ مظهر ناظر يقف فى فناء مدرسة . ولا يعجبه ما يراه .. شئ غريب حقيقة ، لم ير زهدى مثيلا له ، مع طول خبرته فى معاملة أعتى الأشقياء ، والسفاحين . نظرات ليست شريرة ، ولكنها تستفزك بما هو أكثر من الشر ، وكان شوكت يثنى جسده الى اليمين فاعتدل واثنى ناحية الشمال وخرج صوته ناعما متكاسلا .. صوت ثعبان أرقم يخدر فريسته قبل أن يلدغها اللدغة القاتلة .

سأل شوكت :

- اسمك إيه ؟ !

ونظر الرجل نظرة طويلة حادة ، وحرك شفتيه ، وقال اسمه بصوت خفيض .

وعاد شوكت يسأله بنعومة اكبر :

- اسمك إيه باشاطرة ؟ !

ولم يحول الرجل عينيه عن شوكت ، ولم يقل شيئا .

فالتفت شوكت الى زهدى قائلا فى ميوعة يعرف أنها مقدمة لكل الشراسة التى يمكن أن يتخيلها انسان .

- شوف يازهدى .. الحلوة دى مكسوفة موش عايزة تقول اسمها .

كانت تلميحاح شوكت تنبئ بشر مستطير ، ووجد زهدى نفسه لا يحتمل ماقد ثار فى مخيلته من توقعات ، فصاح بصوت كالرعد .

- اسمك إيه ؟

واذا بالرجل يقول بصوت قوى :

- أنا قلت اسمى .

كان صوته متحديا مستفزا ، ان دل على شئ ، فعلى غباء مطلق ، وعدم فهم لحقيقة الموقف الذى هو فيه ، والعواقب الوخيمة التى سوف تنجم عنه .. لقد قال الله سبحانه وتعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » لو عرف الرجل نوايا شوكت وما يستطيع أن يفعله به لانهاى على قدميه تقبيلا لحدائه ، ولكنه كان غبيا بليدا .

وعاد شوكت يقول بصوت فيه نبرة حادة :

— هنا يا شاطرة .. لازم تسمى الكلام ولما تجاوبى تقولى يا افندم .

وقبل أن ينتهى من كلماته ، كان قد رفع يده وهوى بصفعة قوية مدوية على ذلك الوجه العنيد الذى تلقى الصفعة فى بلاد غريبة .
وعاودته نعومته وكأنه لم يفعل شيئا وقال :
— عايز اسمع صوتك . اسمك يا حلوة وتقولى يا افندم .. فاهمة ..
.. علشان أحمر لك خدودك .. واحط لك روج .. وتبقى عروسة .
حلوة .

كان الرجل يسمع ولا يبدو عليه أى اثر للخوف ، لم يتراجع ، لم يهتز سامعاه ، استعدادا لدرء صفعة جديدة ، لم يفعل شيئا على الإطلاق ، واكتفى بنظراته الثابتة ، التى أصبحت أكثر نفاذاً ، وكأنها تتفرج على شوكت ، أو هى موجهة الى منظر مجهول .
وارتفع صوت شوكت :
— انتى سامعائى .

ومد يده ، ولم يصفع الرجل ، بل ربت على خده فى حنان ..
وهو يردد :

— انتى وحشة ، وسايقة الدلال ليه ياللا قولى اسمك .. وقولى يا افندم .

وانهال عليه شوكت بصفتين سريعتين متتاليتين ، والرجل لا يتحرك ، ولا يرفع يده ليدافع عن نفسه ، وكأنه لا يسمع شيئا ، ولا يشعر بشيء على الإطلاق .. كأننا غير موجودين . كان كل مايجرى أمامه لا صلة له به .. اللعين الوقع ، كان لابد من كسره واذلاله ، والا ضاعت هيبة الجميع ، ولم يعد زهدى قادرا على اتخاذ موقف المتفرج الذى يشهد مباراة كرة قدم أو يسمع أم كلثوم .. هذا التحدى للسلطة لابد من قمعه وسحقه ، هذا الكلب لا يريد أن يتعامل معهم ، لا يريد أن يستسلم ، بتوهم أنه وهو اعزل ، قادر على مواجهة هذه القوة الرهيبة التى تقف أمامه .. قال زهدى وقد رأى أن الامور سوف تنعقد :

— سيبهولى يا شوكت .

كان زهدى قد اعتزم أن يفض الحفل وأن يتدبر أمره مع هذا الرجل على انفراد فهو كرجل محنك يفضل أن يتم مثل هذا التدبير أمام أقل عدد ممكن من الشهود وربما الافضل ألا يكون هناك شهود على الإطلاق .. ومن المهم جدا ، وفى كل الاحوال ، ألا يتنبه أحد من

الآخرين الى ما يحدث .. لو تنبهوا فسوف يلتهب الجو وسوف
تتعرض حياة زهدى وشوكت للخطر . تصور هذا الفناء والعناد
ينتقل الى الآخرين ، فيثوزون ويهيمون على العساكر ، أن الحيوانات
الجريئة تكون شرسة الى اقصى حد ، وهى مسألة نفسية وبمجرد أن
يقرر واحد منهم أن يبيع عمره فالعدوى تنتقل الى الجميع ، ومعنى
هذا أن تتحول الحفلة الى مذبحة ، ودماء تسيل حتى الركبة ،
وسين وجيم ، وفضيحة لا نعرف الخلاص منها . ويضيع مغزى
الحفلة ، ولكن شوكت ما كان ليسمع كلام زهدى .

كان الامر بالنسبة له أفدح وأخطر من هذا كله ، أهم شيء عنده
كان أن ذلك الرجل قد أفسد عليه تشوقه ، وقطع عليه شهوته وهى
فى اكتمالها ، وما كان لشوكت أن ينهزم امام هذا التحدى ، وهو
الذى يعيش بفكرة واحدة ثابتة يقيم عليها حياته ، ويستمد منها
شهرته ووظيفته ، وهو انه مخلوق كل مهمته فى الدنيا القضاء على
هذا الشيء الذى اسمه رجولة ، وان هذه الرجولة وهم ، ونكتة
يخدع بها الناس انفسهم .. وهو فى قرارة نفسه يؤمن حقيقة
بذلك ، ويعتقد انه مامن رجل يستطيع أن يصمد امامه ويفتح عينيه
فى عيني شوكت قائلا له ، أنا رجل ، وأنت لست رجلاً .. حتى
زهدى كان يخشاه وكل الذين يتعاملون مع شوكت يخشونه فهم
يستخدمونه كما يستخدم أصحاب السيرك حيوانا شاذا مفترسا ،
يقدمون له الطعام ، والرعاية ، ويستعرضون شراسته ويخشونها فى
نفس الوقت ويحترسون منها .. ذات مرة قال ضابط كبير لزهدى ،
انه أفاق ذات ليلة فزعا على كابوس رأى فيه شوكت فى صورة
امراة غولة تطارده ، وبعد أن ضحكا ساخرين من هذا الحلم الغريب ،
قال الضابط لزهدى مهموما وقد استغرقه تفكير ذاهل ، أنه أحيانا
يفكر فتشط به الافكار ، مع التقلبات السياسية التى تحدث
وما يصاحبها من عزل وفصل واعتقالات ، فيخشى أن يأتى يوم يجد
فيه نفسه تحت برائن شوكت . واتفق زهدى مع صديقه الضابط ،
أن شوكت سيكون فى قمة سعادته ، لو أتيحت له الفرصة لأن
يفتك بأحد من زملائه أو رؤسائه ، فكلما كان الرجل صاحب هيبة
أو نفوذ ، كان ذلك ادعى الى تاللق شوكت واودهاره عندما تتاح له
فرصة اقتراسه . ان شوكت يسمع باستمرار « فلان عامل راجل
هاتوله شوكت » .. « فلان لأبريد أن يعترف ابعثو له شوكت » ،
ويأتى شوكت ، لينفذ المهمة ، وليثبت لنفسه أولا وقبل أن يثبت لاحد

آخر ، أن هذا الذى يظن نفسه رجلاً ، كان كاذباً واهماً يستحق أن يفق من أوهامه ، وأن يخضع ويركع ويهان ، وأنه يقف صارخاً من الهول أمام الشهود ، أنه امرأة .. وهكذا يشعر شوكت بالراحة ، وتنسجم نفسه ومشاعره الدفينة مع ماحوله من مشاعر ونفسيات . لذلك كان نداء زهدى محادثة ميثوسا منها ، فما يواجهه شوكت فى هذا الرجل القصير الربعة ذى الرأس الضخم ، ليس تنفيذاً لتعليمات ، ولا إشرافاً على مساجين وتأكيد النظام بينهم ، أن ماواجهه هو معنى حياته كلها ، فاما هو ، واما هذه الكتلة الصامدة التى يعلوها الشعر الأشيب التى تنظر اليه بعينين غير خاضعتين .. أن صمود ذلك الغيبى هو التحدى المستحيل لشوكت ، الذى تورط فى المواجهة ولم يعد هناك مهرب منها .

صاح شوكت وقد غلبه الانفعال على غير عادته :
- قول أنا مره .

وجعل يردد الطلب صارخاً ، ثم انفجر فاقدا صوابه فانهال على الرجل بالصفعات واللكمات والركلات فى بطنه وفى قصبة ساقه .. والرجل كأنه لا يحس ، لاشك أنه رغم تقدم سنه كان يتمتع بقوة جسدية لا بأس بها ، وكان يتمتع بقدرة تحمل عجيبة ، فمن الذى يحتمل كل هذا ، دون أن يدافع عن نفسه ، ولا يصدر عنه تأوه أو أنين أو أى شيء . وكان شوكت لين الجسد ، فيه طراوة .. ولم يتعود على الضرب ، فلم تحتمل يده وساقاه ما أقدم عليه من عنف ، وشعر بألم شديد فى ذراعيه وساقيه ، فصاح بالرغم منه بعد ركلة وجهها الى ساق الرجل .. وكان صوته أشبه بالولولة .. لفت أنظار وحوشه الذى تركوا ماكانوا فيه واندفعوا الى شوكت ليتلقفوه مع زهدى وهو يترنج ، حتى استعاد توازنه ، فواجه وحوشه بسبهم ويشتمهم ، معلناً انه سينزل بهم أقصى عقاب ، لأنهم تركوا هذا .. مشيراً الى الرجل . كيف لم يخلع ملابسه ، كيف لم يضربوه .. كيف لم يهتكوا عرضه .. كيف .. وكيف .. كان الوحوش يستمعون فى ذهول ، ولا أحد منهم يجرؤ على الاقتراب من الرجل ، ولعلهم لم يفهموا كلام شوكت أو تشككوا فيه ، حتى صرخ فيهم أن يهجموا عليه . فتقدم واحد وضربه بهراوة على ذراعه ، وأمره أن يخلع ملابسه .. فلم يتحرك الرجل .. فصاح شوكت ..

- مزقوه .

وانهالت الضربات ، بطيئة اول الامر ، ثم اشتدت ، وتدافعت ، ولم يعد أحد يدري ما الذى يضره ، الكل محيط بالرجل وهراوة ترتفع وهراوة تهبط ، وهراوتان وثلاث وعشر هراوات ، ترتفع وتهبط ، وتضرب وتضرب وتضرب ، وأصوات ارتطام مكتومة ترتد من الجسد المربع القصير ذى الرأس الضخم ، والدم ينبثق وينشال على وجهه وصدره ، وفقد زهدى قدرته على التفكير ، وتخلت عنه خبرته ، وغرق فى المشهد واللحظة ، وقد تركزت فى صدره رقبة واحدة وكأنها أمنية العمر ، لو كان يملك لندر للسماء شيئا لتحقيق الامنية ، أن يسقط هذا الجسد القصير المربع ذو الرأس الضخم على الأرض ، لم يعد الجسد جسدا .. لا قصيرا ولا مربعا ولا رأسا ضخما . تحول الى شيء غامض تحقد عليه ، يتحداه ويهينك بصموده ، وعدم سقوطه ، ولا يدري زهدى ما اذا كان قد أشترك فى الضرب فى تلك اللحظات التى كان لا يحكمها عقل ولا تدركها حواس . فكل ما كان يجرى كان مختلطا مضطربا ، وهو لم يتبينه ولم يتذكر تفاصيله ويسترجعها الا فى مناسبة يصفها بأنها كانت عجيبة . ويخيل الى انه يكذب وهو يستحضر هذه المناسبة . ولكنه يريد منى أن استمع الى المشهد الختامى ، بعد أن ياخذنى من يدى الى مكة والمدينة المنورة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، هل هو يخذلنى . أم يخدع نفسه . على أية حال يكفينى أن أسجل الآن الصورة كما قدمها لى ، لقد وقف أمام شبك النبى فى المدينة المنورة ، يطلب وساطته فى قبول التوبة عند الله ، وأن يغفر له ذنوبه ماتقدم منها وما تأخر . وانهمرت الدموع من عينيه - هكذا كان يقول لى - بصوته الفاجر ودون أن يبدو عليه أى مظهر للتأثر الحقيقى . وكأنه يعتقد انى سوف أصدق له مجرد أنه يرفع صوته بالكلام .. المهم انه يقول ان دموعه قسملتة وطهرته ، وأنه كان يرى الذنوب التى ارتكبها قائمة مصورة فى عينيه وهو يبتهل ويتوسل فى حضرة سيد المرسلين ، كل ذنب مهما صغر أو كبر ، أهمها ما كان يصدر منه نحو امه من الفاظ وتصرفات .. فهذه كان يراها فتتهطل دموعه كالطر المنهمر ولا تفعلها الا بصعوبة .. وكان من بين ما رأى ذلك المشهد الذى كان يتمناه فى ليلة حفلة السجن ، مشهد سقوط الرجل .. وعرف أنه كان يتمنى سقوطه حتى يتخلص مما يلاقيه من عذاب .. والذى عرفه زهدى فى تلك الصورة التى رآها من خلال دموعه فى الحضرة الشريفة ، هو أن الرجل مات واقفا

وأن جسده المربع احتفظ بتوازنه لفترة من الوقت فلم يسقط، وعندما سقط الجسد ، كان بسبب ركلات فى بطن الركبة ، فانشنت الرجل ، فتداعى الرجل على ركبتيه وجسده قائم منتصب ولكنه كان ميتا . وكانت الضربات والركلات مازالت تلاحقه ، لأن هنيهة ظلنا مفتوحين تنظران فى جمود واستخفاف ، ولا أحد يدرى أنها نظرات موت . ثم سقط الجسد على الأرض . ويعتقد زهدى أن الله قد غفر له تماما هذه الجريمة ، التى يتحدث عنها ، وكأنها خطأ فنى وقع فيه ، وكانت له نتائج السخيفة التى مازال يعاني منها . ثم أراد عند هذه المرحلة من الحكاية أن يتوقف ، وأن يتحدث مسمى عن تو . . وتلك الحالة المستيرية التى تملكه ، فتجعله يتحدث رجال الشرطة ، وقال لى أنه لم يسمع بها من قبل . . ونظر الى فى حذر لا اظن أنه كان موجها الى ، ولكنه حذر مما قد يكون فى رأسه من خيالات وتوقعات عن « تو » . . اذ قال فجأة :

— الولد . . أنا أعامله وكأنه ابنى تماما .

وخيل الى انى اسمع نكتة ، فابتسمت على الرقم منى ، فما هذا السمك اللبن التمر هندی ، ما هذا الجنون والاختلاط فى المشاعر ، الذى يعاني منه زهدى ، بحيث أنه يعترف لى بأنه أشرف على قتل والد تو ، ثم يختتم الاعتراف بأنه يعامل ابن القتل كأنه ابنه . . مرة أخرى ايقنت أنه كاذب ، وهو اما يكذب على وحدى أو يكذب على نفسه أيضا . . وهذا احتمال بعيد . . فهو أشد فجورا من أن يخدع نفسه ، وما حديثه عن التوبة والحج وقبر الرسول وأبوته لئو ، إلا صور يتحلى بها ، ولكن أهميتها اقل بكثير عند رجل مثله ، من أهمية رباط عنق يراه فيمعيه ، سواء يراه فى فتريئة دكان فيشتره أو يراه فى منق والد تو فيقتله .

ومع ذلك ، لابد أن أتروى فيما أقول ، ولعل الأفضل ألا اشغل نفسى بقضية زهدى الشخصية ، قبل أن أسجل تلك المواقف القريبة التى تعرض لها بسبب مقتل والد تو .

لقد سقطت الجثة على أرض حوش السجن . فماذا بعد ؟

الفصل السادس

ان مقتل سجين ليس بالمسألة الهينة ، فكان لابد من التصرف بسرعة ، لقطع دابر الاشاعات والاقاويل . ولكن كيف يتصرف زهدى أمام عشرات الشهود ، اكثر من مائتى عسكري وضابط وسجين ، كل من شهد الحفلة كان شاهدا لمصرع الرجل ، والشاهد ايا كان مصدر للخطر ، وانت لا تضمن العساكر ، وما قد تلوكه السنتهم ، ومهما كان ولاؤهم ، فقد يصدر عنهم أى شيء ، أغلبهم جاهل بنزئر ، أو يتباهى أو تتنابه حالة من حالات الشفقة والضمير ، كل الاحتمالات قائمة تفغر فمها ، كان العساكر هم الجانب السهل من الشهود ، أما الجانب الذى لا تستطيع أن تسيطر عليه ، والذى كان من المتوقع انفجاره ، فهو جانب المعتقلين ، ولا يمكنك أن تعالج المشكلة بأن تجمعهم وتحرقهم فى فرن كما كان يفعل هتلر وتتخلص منهم ، وأصر زهدى على أن أفكر معه ، أو على الاصح أن اتبع منطق تفكيره فى موضوع هتلر ، وكانت وجهة نظره ان العقلية الالمانية صاحبة الامتياز الهائل فى التنظيم والدقة والانضباط لم تستطع أن تكتشف وسيلة لاختضاع المعتقلين أفضل من حرقهم فى الافران ، فما بالك ونحن فى بلد لا يعرف النظام ويعانى من الهرجلة والفوضى وضعف الضبط والربط لابد فى مثل هذه الحالة أن تنطلق الاشاعات وتنتشر الاقاويل هنا وهناك ، وتتحول الحبة الى قبة ، وتتضخم المسائل ، ولا يعانى من هذا فى نهاية الامر الا المساكين الذين تحملوا المسؤولية على أكتافهم من أمثال زهدى وشوكت ، والغريب أن زهدى كان يتحدث عن هتلر وكأنه لم ينهزم ، ولم ينفذ أمره بسبب استخدامه الافران ، فمازال هتلر بالنسبة له ، هو هتلر العظيم ، الفوهرر الذى لا يقهر ، أما كيف يتمسك زهدى بهذه الاراء التى تحطمت تاريخيا ، فامر محير لا يستطيع تفسيره الا بجهله المطبق . وبعد أن حدثنى عن افتقاده للافران ، ذكر لى كيف أنه كان أسرع الحاضرين الى استعادة اتزانه بعد موت الرجل الذى ساعده على ذلك ، انه فوجيء بالانهيار الكامل الذى أصاب شوكت . فقد ظل يصرخ فى رجاله أن يرفعوا الجثة ، وهو مصر على ان الرجل مازال حيا ، وأنه يتجاول بالرقاد ، كان مغنيلا يائسا ، يتلهف

الى رؤية الرجل وقد وقف من جديد ، وكان يتلفت حوله غير مصدق
أن وحوشه المدربين يتراجعون فزعين مذعورين خوفاً من جثة أكسبها
الموت هيبه وحرمة . حتى أن الصراع نشب بين شوكت ووحوشه .
فهو يصرخ فيهم : أوقفوه ، اجعلوه ينهض . فيتقدمون نحو الجثة
خائفين من صرخات شوكت ، ثم مايكاد الواحد منهم يمسك بالجثة ،
فيجدها متصلبة تجمدت الدماء عليها ، حتى ترتعش يده « ويهمس
« الرجل خلص » ، فيجن شوكت ، ويشتمهم ويهجم عليهم ، يدفعهم
نحو الجثة دون أن يقترب هو ، وتكرر المشهد ، فلم يعد هناك مفر من
أن يتنبه زهدى الى خطورة الموقف ، وكان حازماً ، فأمر الجنود بضرب
حصار على بقية المساجين الذين كانوا فى مرحلة وجوم وذهول ، مما
عطل قدرتهم على التظاهر برد فعل سريع ، وأصبحت الدقائق لها
قيمتها ، فأصدر الأمر بادخال المساجين العنبر فوراً ، وصاح فى
نفس الوقت بأعلى صوته متعمداً أن يسمعه الى الجميع :

— أنقلوه الى المستشفى . .

وتقدم ثلاثة عساكر ، وحملوا الجثة ، وزهدى يتابعهم بصيحاته
التي تعمد أن تكون مسموعة ، طالبا من العساكر أن يعودوا بالرجل
الى الزنازة ، بعد أن يعالجه الطبيب . كانت مئات العيون ترقبه
ومئات الأذان تنصت اليه ، وكل كلمة يقولها الآن ، سوف تسجل
فيما بعد فى محاضر تحقيق . لابد أن يجهز الادلة التي تؤكد أن
الرجل لم يمت امام أحد . بدليل أنه طلب نقله الى المستشفى لعلاج
بدليل أنه أمر بعودته فوراً الى الزنازة بعد انتهاء العلاج . لماذا
سقط ؟ آه . . لقد سقط لان نوبة أصابته . نوبة قلبية . كانت الادلة
تتراحم فى رأس زهدى ، وكلها أدلة نفي لموت الرجل الذي مات ،
لولا صراخ شوكت وانهياره ، الذي فقد عقله تماماً ، لانه لم يتحمل
أن يموت الرجل قبل أن يثبت لشوكت انه ليس رجلاً . مقلب نظيف
شربه شوكت وكانت فيه نهايته ، ولكنه من فاحية أخرى ساعد
بتصرفاته الخرقاء على اقناع الآخرين بأن الرجل مازال حياً ، وامسك
زهدى بيد شوكت وجذبه الى بعيد ، وقال له بلهجة حاسمة انه يجب
أن يترك المكان فوراً ، وان عليه أن ينتظره فى المكتب ، ونظر اليه
شوكت فى هلع وقال مرتعداً :

— حاضر يا أفندم . .

وأسرع يغادر المكان . وفى دقائق كان الحوش خالياً الا من واحد
من السجنائين كان يقوم بتنظيف الأرض من بقع الدماء ، ويجمع ماوقع

فى ساحة المصمعة ، من ملابس وحطام نظارات . وطبعاً كان لابد من تسوية الموقف بسرعة وقبل أن يطلع الفجر . تقرير من الطبيب الشرعى بأن الرجل مات بالسكتة القلبية . وتشرح الجثة ، وأثبتت عدم وجود كسور فى الجمجمة او الحوض ، يكفى أن يسجل التقرير بضيم سجلات ورضوض نجمت عن سقوط الرجل اثر اصابته بالسكتة القلبية ، عملية ليس من السهل القيام بها ، ولكنها ممكنة ، ولقد قام بها زهدى على أحسن وجه ، ويعترف بأنه كان قلقاً ، ولكنه لم يفرع ، فمثل هذه الحوادث متوقعة ، وهى تحدث أحياناً ، وإن كان غير مرغوب فيها ، والعرف السائد هو حماية من قام بالعملية ، والتكتم عليها ، وأفضل أسلوب للتكتم ، هو أن تأخذ الاجراءات مجراها ، المحاضر والاوراق والسجلات تستوفى ، بحيث يكون هناك تحقيق جاهز تحت الطلب ، يشرح أسباب الوفاة ، وهذا هو المهم ، أن تحقيقاً قد أجرى ، وانتهى الى نتيجة محدودة ، تؤكد أنه لم يحدث خرق للقانون . ان الدولة لا تريد أن تفضح نفسها ، وهى تقدر أن الذى أقدم عليه شوكت وزهدى ، كان من أجل تأكيد سلطتها ، وضد أعدائها ، ولكن هذا لا يعنى الاعفاء من اللوم ، فالرؤساء لا يريدون المواقف المحرجة ، هذا فضلاً عما فى حدوث الوفاة من دليل على عدم الخبرة بفنون الضرب ، ويعتقد زهدى أن هذا الاتهام بعدم الخبرة ، هو أخطر الاتهامات ، فهو أخطر من اتهامه بالشكليات كخرق القانون ، واستعمال القسوة ، وغير ذلك من الكلام الذى لا قيمة له من الناحية العملية . أن الذى يعنيه فى المقام الاول ، هو « الحرفنة » كما يقول ، ومقياسها بالنسبة له أن تضرب من تشاء وتفتك بمن تشاء ، وتسوم أى واحد كل ألوان العذاب ، بل وتصل به فعلاً الى حافة الموت ، ولكن دون أن يموت ، ودون أن تترك فى جسده آثاراً فاضحة ، تشهد على الضرب والتعذيب . هذا هو الفن ، وهذا هو مقياس الخبرة والكفاءة ، وماعده من حديث عن حقوق السجين ، والمعاملة الانسانية والقانون فكلام ساذج لا يصدقه إلا السذج ، ولا يعترف به أحد فى أى سجن من سجون العالم . كان زهدى يقول فى انفعال : هل تصدق أنهم يعاملون المساجين فى أمريكا معاملة انسانية . ثم يصدر شخيراً من أنفه ، ثم يسألنى : وهل يحدث هذا فى روسيا ؟ . ويصدر شخيراً أطول ، ثم يسألنى : هل يحدث هذا فى نيام نيام ؟ ثم يصدر شخيراً غريباً . . ثم ختم شرحه قائلاً : حتى فى المعتقل الذى أمده ربنا سبحانه وتعالى للكافرين المذنبين ، هل

بعدهم بالمعاملة الانسانية . هل قرأت وصف ما يلاقونه من عذاب ،
 واسياخ محمية ونيران تشويهم ، اذن لماذا نخدع انفسنا ، ونقول ان
 المساجين يجب ان يعاملوا معاملة انسانية . . هذا كلام ساذج ، وكل
 ما هو مطلوب ان تكون المعاملة بفن وحكمة . المطلوب هو ان تعذب
 لا ان تقتل . تماما مثلما يحدث في الجحيم ، تعذيب لا قتل . واختتم
 زهدى شرحه قائلا لى : هل فهمت يا استاذ ؟ . . لعلك تكون قد
 استفدت حتى تكفوا عن كتابة كلام أهبل عن المعاملة الانسانية للمذنبين
 ولقد تمت الاجراءات التى أعدها زهدى بسرعة ، ودفنت الجثة بغير
 جنازة ، ولم يسمح لاهل الرجل بمشاهدتها ، الا فى كنفها ، وكانت
 زوجة الرجل مدرسة فى روضة اطفال « . . . » ، وكان الرجل
 مدرسا اول للمواد الاجتماعية بمدرسة : « . . . » الثانوية ، وكانت
 المعلومات الواردة بالملف الخاص به ، تقول عنه ، انه فى التاسعة
 والاربعين من عمره ، وأنه اب لثلاثة اولاد كلهم ذكور ، اكبرهم « تو »
 الذى كان وقتها فى العاشرة من عمره . وكان الرجل عضوا بارزا فى
 اللجنة المركزية للتنظيم الشيوعى « . . . » الذى يدعو الى الكفر
 والاحاد والقوضية وينشر دعوة الاباحية التى تسمح بتبادل الزوجات
 لزوجاتهم ، وتبيح للرجل ان يقفز فوق أى امرأة أينما شاء فى الطريق
 العام ، او فى حديقة عامة ، واصحاب مثل هذه الدعوة مصيرهم
 جهنم ، وما كانوا يلاقونه من عذاب على يد شوكت وفرقة ، ما هو
 الا ذرة او قطرة من محيط العذاب الذى سوف يحقق بهم فى الآخرة
 وقد بلغ من سفالة ذلك الرجل ، انه كان مستغفلا ابنه « تو » وهو
 طفل فى نقل الرسائل والاوراق بينه وبين زملائه فى التنظيم ، وكان
 أغلب نشاطهم موجها الى منطقة شبرا الخيمة ، ووسط تجمعات
 العمال ، وكانت كل تحركاتهم واسمائهم الحركية ومنشوراتهم وخططهم
 تقع أولا بأول بين ايدي الشرطة . لان من السهل ان تجد بين هؤلاء
 المنحليين من يبيع اصحابه مقابل قرشين . وبينهم من يقبل ان يدخل
 معهم السجن ليتجسس عليهم داخله ، انهم لا يستحقون أى عطف او
 شفقة ، ورغم ذلك كان لابد فى مواجهة الموت من اتخاذ اجراءات
 تكسر من حدة ردود الفعل ، كصرف اعانة للزوجة ، وطبعا لابد من
 التكفل بمصاريف الجنازة ، ثم وضع الاسرة تحت المراقبة الشديدة ،
 لمعرفة اتصالاتها ، وقطع الطريق على محاولات من اقلت من السجن
 استخدام الزوجة فى اثارة ضجة حول موت الرجل .

وقد خيل الى زهدى اول الامر انه استطاع انقاذ الموقف وتفادى

أبة ضجة . وكان سروره كبيرا عندما عرف أن تقارير المراقبة تقول أن الاولاد في مدرسة « تو » يتحدثون عن والده كمجرم ، وجاء في أحد التقارير ان « تو » نفسه ، كان يشارك الاولاد في اتهام والده ، وأنه كان خجلا من واقعة القبض عليه وذهابه الى السجن ، وكان أحد المدرسين قد سأل أحد الاولاد الذين يخاطبون « تو » عن حالته بعد موت أبيه في السجن ، فقال الولد أن « تو » قال له أنه أستراح بموته ، وأن والده كان دائم الشجار مع أمه ، وكان « تو » وأخوته ضحية لهذا الشجار . وكانت هذه هي كل المعلومات التي جمعها زهدى عن حياة الرجل بعد دفنه ، واكتفى بها ، وقد اطمأن الى أنها بشر بأن كل شيء سوف يكون على مايرام . وكان اهتمام زهدى الأكبر منصرفا الى المعتقلين في السجن من ناحية ، وشوكت وفرقتهم من ناحية أخرى . فأما المعتقلون ، فقد قرر زهدى أن يغير سياسته معهم ، ولكن بالتدريج ، حتى لا يشعروا بأنه خائف منهم قرر أن يرشوهم تدريجيا ، بالسماح لهم بالسجائر . وبعض المجلات ، وغير ذلك من الأشياء التي يستطيع أن يسمح بها أو يمنعها عنهم وقتما شاء . وكان واثقا من نجاح خطته ، ولكن المتاعب بدأت يوم سمح بدخول الطعام الذي يرسله لهم اهلهم . فقد فوجئ بالاختيار تأتي اليه بأنهم رفضوا قبول هذا الطعام واكتفوا بالقول المسوس الذي يقدمه لهم السجن ولم يصدق . فليس من المعقول أن يحرموا أنفسهم مما جاء في الصواني والحلل ، وذهب زهدى بتفقد الحال بنفسه ، وكانت هذه أول مرة يواجههم فيها منذ ليلة الحفلة . وسألهم وقد رسم على شفثيه ابتسامة بشوش ودود . لماذا لا يأكلون ، وإذا بهم ينظرون اليه في صمت مريب ، ولا أحد يجيب ، وفحص الطعام ، وامتدحه ، ومد يده ، وتذوقه امامهم ، مشجعا لهم على الأكل . كان مجرد رؤيته وهو يأكل كفيلة بأن تسيل اللعاب من أفواههم . وقد لاحظ بالفعل أن أكثر من واحد ينظر اليه ويبلغ ريقه ، وإذا بواحد منهم له وجه فأر ، عيناه جاحظتان من قصر النظر ، ولا بد أنه كان يستخدم نظارة وتحطمت في الحفلة ، وقال له وجه الفأر :

— إن تأكل هذا الطعام ؟

قال زهدى :

— ولكن هذا ليس طعام السجن .. لقد جاء به اهلكم .. زوجتك .. أو أمك أو شقيقتك .. هي التي طبخته .. فما ذنبها ..

قال وجه الفار :
- ولماذا تسمح لنا به ..
قال زهدى ضابطا لاعصابه :
- وهل تريد منى أن امنعه ..
فاذا بالولد يقول فى تحد :
- هذه رشوة لا تقبلها ..
قال زهدى متعجبا :
- اى رشوة .. تعنى ..
قال الولد محتدا :
- لو اكلنا هذا الطعام .. فنحن نأكل لحمه . ونشرب دمه .
وهنا انفجر آخر صارخا :
- نحن مستعدون للموت كما مات هو .
وصاح زهدى هادرا :
- اخرس يا كلب أنت وهوه ..

ومنذ تلك اللحظة ، ادرك زهدى أن تعقيدات كثيرة سوف تحدث
وان علاج الموقف فى أحد أمرين لا ثالث لهما ، أما أفران هتلر ،
وابادتهم جميعا ، أو اخفاء هؤلاء الشهود فى مكان ناء قصى لا يعرفه
مخلوق ، ولا يصل اليه الجن الاحمر .. وبما أن الأفران ليست
متوافرة للأسف فقد لقي اقتراحه بإبعادهم الى معتقل فى الواحات
ترحيبا كاملا .. والى هناك ساقوا كل شهود حوادث القتل والتعذيب
فى هذه القضية ، وفى القضايا الأخرى ، بعضهم شيوعيون ، وبعضهم
من الإخوان المسلمين ، وكانوا أكثر خطورة من الشيوعيين ، لانهم
مدربون على السلاح ، وأجسادهم قوية ، الواحد منهم كالحصان
على عكس الشيوعيين ، المسلولين ، ولكن حدث قبل نقل المعتقلين من
السجن الى الواحات ، أن تقدمت الى النيابة عشرات البلاغات تتهم
شوكت وزهدى بقتل الرجل ، صاحب هذه البلاغات منشورات تصل
الى كل المسؤولين فى خطابات عن طريق البريد ، وذات يوم وقبل
نقل المعتقلين بأيام ، أبلغوا زهدى أن النيابة قادمة للتفتيش على
السجن واجراء تحقيق فى وفاة الرجل . واستعد زهدى للمناسبة
فأخفى المعتقلين فى زنانات بعيدة يكسل المحققون عن الوصول اليها ،
واشرف على سير التفتيش وحركته ، بحيث يلتقى المحققون ببعض
المسجونين الذين يشهدون بأن شيئا لم يحدث فى السجن فى ليلة
راس السنة الجديدة ، واستمع المحققون الى الشهود ، ودونوا الأقوال

وأقفلوا المحاضر وهموا بالانصراف ، وبينما هم فى الحوش ، اذا بنفس الولد اللعين ذى وجه الفار يتسلق نافذة الزنزانة ويصرخ بأعلى صوته :

— يا نيابة .. تعالوا اسمعوا اقوالى يانياسية .. انا اطلبكم بالتحقيق فى الجريمة التى ارتكبوها .. وشهدتها بعينى .. قتلوا « ... » امامى وامام رفاقى .

كيف عرف بان النيابة قادمة ؟ وكيف عرف بان هناك تحقيقا يجرى فى ذلك الوقت بالذات ؟ واضح ان الامر يستفحل ، وهناك من يتجسس على ادارة السجن وينقل اخبارهم الى المعتقلين . وهذا خطر ، فعندما تتشكك فى السجائين او الضباط تتوقع ان يفلت الزمام فى أية لحظة ، ووقف رجال القانون ينصتون الى الصيحات ، وتجاهلت انى اسمع اى شيء . ولم تفلح الابتسامات ولا الثرثرة باى كلام . ان رجال القانون تنقصهم المرونة فى مثل هذه المواقف . وسال رئيس المحققين :

— من اين يصدر هذا النداء ..

قال زهدى :

— اى نداء يا افندم ؟

فاحمر وجه المحقق ، وقال فى غضب مكتوم :

— اذهب الى هناك ..

وتحرك زهدى ، وهو يتظاهر بعدم الاكتراث ، مرددا ان بعض المساجين تظهر لهم رؤى وخيالات تجعلهم أشبه بمرضى مستشفى المجاذيب .. فما كان من المحقق الا ان وقف ، وطلب منه ، ان يكلف احدا بالذهاب معه . وكان مغزى هذا الطلب واضحا ، ان يكون زهدى بعيدا عن مكان التحقيق ، حتى لا يؤثر بحضوره فى اقوال الصارخ الشاكي .

واتجهوا الى الزنزانة وسمعوا اقوال المعتقل ، وسجلوا فى محضر التحقيق كل شيء ، وكان خطأ فنيا آخر تورط فيه زهدى ، لو كان اتخذ احتياطاته كما يجب ، لما وقع هذا الحادث الذى يعنى مزيدا من الاحراج . ليست الافران الهلترية أفضل ، انها الضمان الوحيد امام حالة عدم الانضباط . التى تؤدى بالسجائين او بعض الضباط الى افساء الاسرار ، ومع ذلك فاجراء التحقيق شيء والوصول به الى نتيجة شيء آخر ، والذى تعرض للمحاكمة التأديبية هو شوكت ، وقد تقرر فصله من الخدمة . وكان لخروجه خسارة كبيرة لا تعوز ،

فهو رغم كل شيء كفاءة نادرة فى التنظيم والتدريب ، وقد وقع عليه قرار الفصل كالصاعقة ، ولكنه استطاع أن يتماسك ، وتلقفه شيخ صاحب ملايين ، يعيش بملايينه حياة أبى نواس ، واستطاع شوكت معه ، أن يعمل فى الاستيراد والتصدير وعاش فى جنيف ، كملك يركب أحدث عربات المرسيدس ، والبويك . وقد قابله زهدى فى مطار روما اثناء رحلة قام بها الى الخارج ، فقال له انه يصرف فى اليوم الواحد أكثر من مائة جنيه ، ومع ذلك فهو يشعر بمرارة ويفتقد حياته مع فرقته وشهرته وهيلمائه فى السجون . وهذه الرحلة بالذات لها قصة جاء أوانها ، كان زهدى عضواً فى وفد ذهب الى « . . . » لحضور مؤتمر دولى عن السجون ، وهناك ، استدرجوه الى ندوة ، ذهب اليها بحسن نية ، ودخل قاعة مزدحمة بحوالى ألف شخص ، واجلسوه مع آخرين فى المنصة حول مائدة عليها الميكروفونات ، والتف حولهم المصورون يلتقطون لهم صوراً فوتوغرافية وسينمائية وتليفزيونية ، وكان المفروض أن يتحدث كل واحد من الجالسین على المنصة ، وهم من جنسيات مختلفة ، عن تطوير نظام السجون فى بلده . وكان زهدى قد أعد بحثاً قصيراً مناسباً لا يتعدى القاؤه باللغة الانجليزية عشر دقائق ثم يترجم الى لغة البلد فى عشر دقائق أخرى . وافتتح رئيس الندوة الجلسة وألقى بضع كلمات لم يفهما زهدى ، ولكن اسماً عربياً سمعه ، نطقه المتحدث ، فارتطم بأذن زهدى ، كان اسم الرجل الذى مات فى السجن فى تلك الليلة المشهودة . وقبل أن يفیق زهدى من المفاجأة ، اذ بالجميع : من يجلسون على المنصة ، والالاف الذين يجلسون فى القاعة كلهم يقف صامتا ، ما الذى يجرى ما الذى حدث . . انهم يقفون حدادا ، هكذا يقول المترجم . حدادا على روح شهيد الطبقة العاملة الذى استشهد فى السجون المصرية . . ووجد زهدى نفسه يقف مع هذا الجمع الفقير وقد ساد بينهم الصمت ، وكأنهم جميعا يتفلسفون بنظراتهم ويلفحونه بأنفاسهم الحارقة . سئخت رأسه ، وبذل جهدا خارقا ليبدو وكأن شيئا لم يحدث ولا يدرى كيف قرأ بحثه ، ولا كيف أنفضت الندوة . . وكان بعض زملائه جالسين فى القنصاعة ، فانضموا اليه ، وتخلصوا من المترجم المصاحب لهم ، وعادوا الى الفندق مسرعين يتداولون الامر . هل أخطأ زهدى بالوقوف ؟ هل كان يجدر به الانسحاب ؟ ما الهدف من هذا القلب الخبيث ؟ قالوا كلاما كثيرا ، وزهدى يستمع اليهم مستسلما وقد أزهقه الموقف فلم

يعد قادرا على الكلام أو الانفعال أو عمل أى شيء ، كان كل ما يحس به رغبة فى القيء تجيء وتذهب ، ولا يستطيع أن ينهض متوجهسا الى دورة المياه ليفرغ مافى جوفه . حتى هبط عليهم وهم جالسون فى بهو الفندق ، أحد رجال السفارة المصرية ، وطلب منهم ان يذهبوا معه فوراً للقاء السفير ، وبدأت الحياة تدب فى جسد زهدى من جديد ، وجلس بجوار رجل السفارة الذى كان يقود السيارة بنفسه ، وانطلق يشتم ويسب هذه الافعال الشريرة التى ارتكبها هؤلاء الاوغاد الملاحدة . لابد من الاحتجاج لابد من الاعتذار لابد من مفادرة الوفد لهذا البلد فوراً ، مثل هذا الحادث جزاؤه قطع العلاقات الدبلوماسية فى الحال . كان حماس زهدى يزداد اشتعالا والتهابا ، وزملاؤه يشجعونه ورجل السفارة يؤكد له ان ماحدث ستكون له اواخر العواقب حتى دخلوا على السفير الذى كان ينتظرهم فى قاعة فخمة واسعة بالسفارة .. وما كاد يرى وجوههم المحتقنة ويسمع كلماتهم الملتهبة . حتى بدا عليه الانزعاج . وإذا به يقول لهم فى لهجة حاسمة آخر ما كان يتوقعه زهدى .. انتم لا تعرفون سياسة بلدكم .. انى احذرکم من اثارة اى ضجة من اى نوع :

— لا احتجاج ولا انسحاب ..

والتفت السفير الى زهدى وقال له :

— ان تصرفك كان عظيما .. عندما وقفت حدادا على الرجل الذى مات .

انهم يعتبرونه شهيدا ، وليس لدينا مانع فقد كان ماركسيا مثلهم .

ووقع فى يد زهدى ، بينما قال زميل له فى الوفد :

— ولكننا يا سيادة السفير لسنا ماركسيين ..

قال السفير فى هدوء :

— طبعاً .. ولكن هذا لا يمنع من ان تكون اصدقاء ..

صاح الرجل :

— انهم يتهمونا بقتله .

قال السفير بلهجة باردة خالية من اى انفعال :

— فى كل مكان فى العالم تحدث مثل هذه الاخطاء .

فى تلك اللحظة ، عرفت زهدى ان نهايته قد اقتربت ، ولزم الصمت ، ولم يعبأ بما يقدمه السفير من شرح وتحليل سياسى ، حتى عندما قال السفير .. ان كل هؤلاء المعتقلين فى الواحات سوف

بفرج عنهم .. قابل زهدى الخبر بعدم اكتراث . عرف انها شهيرة ويخرج محالا الى المعاش .. وتذكر لقاء الصدقة الذى كان بينه وبين شوكت فى مطار روما وهو فى طريقه الى ذلك البلد . هل يمر على شوكت فى جنيف أثناء عودته . ويسأله أن يشركه معه فى أعماله ، ولكنه لا يستطيع أن يترك وحيد حسن ، الأفضل أن يركز جهوده فى أرضه بكفر الدوار . ويعيش فى الاسكندرية ، ويصرف جهوده فى الأعداد لمستقبل ابنه الوحيد . أقسم زهدى . أنه رأى كل هذا المستقبل ، وهو جالس فى تلك القاعة الفخمة التى استقبلهم فيها السفير . رأى كل شيء كما حدث تماما . ولكنه لحظتها لم ير هجرة ابنه حسن ، ولم ير لقاءه بتو . وبعد أن خرجوا من السفارة ، تحول زهدى الى شخص آخر ، كان لا يثق فى شيء ، واثارت شكوكه حول ما قد يحدث له من ورطات ومقالب أخرى ، وكان يتلفت حوله فيخيل اليه أن الجميع يراقبونه ويعرفونه ، فخاف على نفسه ، وراودته الافكار عن احتمال اختطافه ، أو الاعتداء عليه ، ولكنه لم يفسح عن شعوره هذا لاحد . كان يعلق على نفسه باب حجرته فى الفندق بالمفتاح والترباس ، ويحكم اغلاق النوافذ فيشعر بالاختناق ويتصل بزملائه فى الحجرات المجاورة .. ويوقظ من نام .. وقد يذهب الى حجرة واحد منهم ويظل يثرثر معه حتى الصباح . يقول أى كلام فارغ ، أى شيء ، ويسب نفسه ، وصاحبه ويروى تكتيا جنسية ، يقول أى شيء لا يؤخذ عليه كموقف سياسى ، ولم يتخلص من هذا ألكابوس بعودته الى مصر ، فقد بدأت الرؤى التى تكشفته له ، وهو مع السفير ، تتحقق الواحدة تلو الأخرى ، تغيرت سياسة البلد ، وتغيرت المناصب ، والذين كانوا يحمونه بالامس تخلفوا عنه ، وبدأوا يتحدثون بلغة أخرى ، كلها من نوع السجع الاشتراكى الشيوعى التقدمى الى آخر هذا الكلام الذى يقول زهدى أنى أعرفه جيدا وانا جر به فى سوق الصحافة . وجاء اليوم الذى صدر فيه بالفعل قرار إحالته على المعاش ، وقال لنفسه مواشيا أن آخر خدمة الفز علة . وأنه دائما يوجد الفز ويوجد من يخدمهم ، وتنتهى الخدمة فى كل الأحوال ، وفى كل زمان ومكان وتحت أى ظروف بالعلقة . وكان خروج زهدى الى المعاش أيدانا بخروج المعتقلين والافسراج عنهم بعد شهرين .

وهنا تشنج زهدى وهو يسألنى :

- بماذا تفسر خروج هؤلاء الدين ائمتناهم بالتخريب والتدمير
والارهاب والهدم ، ماذا تفسر اعطاءهم المناصب والمراكز .. ماذا
تفسر انهم يهللون لنفس السلطة التي اعتقلتهم ..
قلت له : هذه هي السياسة ..

فصاح :

- ملعون أبو السياسة ..

ثم سألني بحرقه :

- ولماذا لم يضربوا عن المناصب .. كما اضربوا عن الطعام الذي
أرسله لهم أهلهم في السجن .. لماذا قالوا لا نأكل هذا الطعام لانه
لحم القتيل ودمه .. ولم يقولوا لا نجلس على مقعد هذا المنصب او
ذلك .. لانه من عظام صاحبنا القتيل .

وجدتني أقول له وأنا لا أعى ما أقول :

- ربما كانت الإجابة على سؤالك عند تو ..

فسألني في دهشة :

- ماذا تعنى ؟

قلت له :

- لا أعرف ، ولكنك سوف تساعدني ، لو قلت لى كيف عرفت

تو .. فهم قبلوا المناصب وهذا فى رأيك غريب .. وأنت تقول أنك

تبنت تو وهذا فى رأيي أقرب ..

الفصل السابع

« تو » أو السياسة

هنا وصلنا إلى مفترق طرق ، زهدى يريد أن يشدنى إلى الحديث عما يدور في البلاد من تقلبات سياسية ، يريد أن يفهم ، أو كما قال لي فيما بعد ، « أريد أن أتأقلم » أما أنا فكنت مصمماً على أن اسمع منه بقية قصة « تو » ، لقد حدث بينى وبين زهدى شداً وجذباً حول هذين المحورين ، السياسة ، وحكاية تو ، وأعترف أنى لم أدرك معنى هذا الشداً والجذب ساعة حدوثه . ولكن المعنى واضح لى تماماً وأنا أسجل خواطرى ومعلوماتى فى هذه اللحظة على الورق . ويخيل إلى أنى سأفهم أكثر دوافع زهدى لو تذكرت بدقة كيف جرى الحوار بينى وبينه ، وأهم من ذلك ، لعلى أكتشف بعض ما فى نفسى من غموض أقرب إلى التشويه ، أحدثته تلك المخاوف التى أثارها أعترافات زهدى عن مقتل والد « تو » فبعد أن أسجل كل شيء ، يجب أن أجيب على سؤال أوجهه إلى نفسى . . هل أنت جبان ، هل أنت تعيش فى مجتمع بلدك وتتعامل مع الآخرين وتكتب لهم وأنت متحكوم بالمخاوف وألوان الدعر . هل أنا أتشبث بحكاية « تو » لأهرب من حكايات السلطة والسياسة بأهوالها وجبروتها ، أنى أكتب هذه الأوراق لنفسى ولن يطلع عليها أحد ، فعلى الأقل يجب أن أكون صريحاً إلى أقصى حد فى هذه اللحظات بالذات . وإذا لم أفعل ، فما فائدة كل هذه المعاناة ، وأرجع الآن إلى زهدى ، وأذكره وهو يقاطعنى محتجاً ، يسألنى لماذا تهتم بـ « تو » إلى هذا الحد . لماذا تتشكك فى تصرف إنسانى أقدمت عليه عندما قدمت له المساعدة والرعاية ؟ أقرب فى نظرك أن ألبى دعوة الشبهة والمروءة ، هل أصبح كل شيء فى الدنيا يقاس بمقاييس الانانية والنذالة ؟ أنا لست ياسيدي وحشاً ضارياً ، أنا قلاح عريق من عائلة عريقة ، وإذا كانت دواعى العمل قد اقتضت أن أقوم بعملية يقتل فيها رجل ، فليس معنى ذلك أنى غليظ

القلب ، أريد أن افتك بكل الناس ، ثم ما هذا الذى قمت به من أجل تو ، مجرد وظيفة صغيرة حصل عليها فى النادي ، أهم منها ، هو شعوره بأن له ظهرا يحميه ، بل يتبناه . ولقد فعلت كل هذا لوجه الله ، صدقتى أنه معروف صنعته وقذفت به فى البحر . ولا بد أن أسجل ، أن زهدى توقف هنا عن الكلام وكأنه يريد أن يراجع نفسه فيما قاله . ثم عاد يقول لدهشتى :
- فى الحقيقة أنا قذفت بهذا المعروف فى صفيحة زبالة .

ولم أفهم ساعتها سر هذا التعديل الذى بدا له أنه ضرورى ، فما الفرق بين أن يقول إنه قذف بالمعروف فى البحر ، أو فى صفيحة زبالة ، ولماذا يتحول البحر فى خياله الى قمامة ، ولم يترك لى زهدى فرصة لتحليل أسلوبه ، فقد انطلق يدافع عن نفسه . وكأنى أتهمه بمساعدة « ... » فجعل يردد أنه لن يستفيد شيئا من وراء « تو » لا شيء على الإطلاق .

وكان زهدى يتحدث بلهجة عاطفية ، صوته يتهدج أحيانا ، ويدها ترتعشان من الانفعال ، ولم تقنعنى هذه الحالة العاطفية ، كنت أقرب الى الظن أنه نصاب كبير يؤدى دورا غير متقن فى عملية احتيال كبيرة ، كان صوته قد ارتفع . . وتحول من الحديث الى الخطابة ، وتحولت أنا المستمع الوحيد الى ما يشبه الجمع الفقير . وكان ينظر أمامه وفى عينيه إعجاب بنفسه ، حتى خيل الى أنه يتأمل ملامح وجهه فى مرآة يتوهم وجودها أمامه . قلت لنفسى ، ماذا وراءك يا زهدى ما الذى تحاول إخفاءه عني ، أو عن نفسك ، وبدأ صبرى ينفد ، فلم أعد أطيق استمرار الخطبة ، فلما ابتسم لى ، يدعونى الى أن أقول له كلمات إعجاب أو اعتراف بتصرفه الإخلاقي العظيم كان أشبه بالمثل الذى ينحنى للجماهير وهو واثق من أنها سوف تصفق له بحرارة وإعجاب ، وعندئذ شعرت بنفور حاد منه ، رغم أن كل كلمة قالها ، كانت نقيض بالمعاني السامية ، وتؤكد أقيم النبيلة فى حياة الإنسان . ووجدتني أقول له فى عصبية لا تخلو من سخرية انى كرجل حرفته الأدب ، ترهقنى الصيغ الإنشائية ، والكلمات الكبيرة ، مثل الشهامه والمروءة والنبل والإنسانية الى آخر هذه الكلمات الضخمة ، وكان يستمع الى فى غير فهم ، فأضفت قائلا انى كنت أسمع منذ قليل اعترافه التفصيلي بإشرافه على عملية قتل والد « تو » فلو كان يعرف حقيقة المعانى الضخمة التى يتحدث عنها ،

لتردد طويلا ، قبل أن يحدثنى على هذا النحو عن اليتيم الذى كان هو نفسه سببا فى تيممه .

وتوقعت أن يشور زهدى ، فقد بدت عليه علامات التنبه لما أقول ، وأوشكت أن اسمع سيل الشتائم البديئة التى سيقدفنى بها ، ولكنه أستمر يستمع الى فى بلادة وقد ففر فاه ، وللحظة خاطفة خيل الى أنه قلق ، وأنه يشعر بضعف ، وسرت فى جسدى رعدة ، كأني أرى ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة ، أن هذا القلق الذى مر كالشهاب فى عينيه ثم اختفى ، كان يعلن عن وجود انسان فى هذا الكيان أو الجسد المدعى والمتداعى الجالس أمامى .

أكون هناك احتمال للقاء حقيقى بينى وبين هذا الرجل ، لقاء انسان بضعفه وقلقه ومخاوفه ، مع انسان آخر بضعفه وقلقه ومخاوفه . هل هناك شيء آخر حقيقى خلف هذه الواجهة التى اسمها اللواء زهدى ، والتى أنادىها أحيانا عندما اداعبه هاتفا . . يا جنرال . . كيف أمسك بهذا الشهاب الذى لمحتنه فى عينيه ؟ أم هو الوهم الذى جعلنى أرى ذلك الشهاب . وزادت دهشتى وأنا أرى زهدى يميل برأسه نحوى ، وقد تقدم بجسده الى حافة المقعد الذى يجلس عليه ، مطرقا بأذنيه ، يريد أن يسمع منى الزيد .

وما الذى فعلته فى تلك اللحظة ، لقد ارتبكت ، وتحقت ، وتحولت مشاعرى فجأة من تقيض الى تقيض ، همست مخاوفى ، هذا الرجل يريد أن يستدرجك لأمر ما ، ألزم الحذر ولا تندقع معه فى الكلام ، وأنت على أى حال جئت لتسمع لا لتكلم ، وإذا بى أقول لزهدى معتذرا له عما بدر منى ؟

— آسف يا زهدى بك .

فنظر الى نظرة طويلة وأهنة ، وقال وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة هادئة وأدعة أنه كان يريد أن يسمع رأيى ، كان يتحدث ببطء ، بلهجة فيها تفكير ومعاناة . لهجة تختلف تماما عن اللهجة المسرحية الخطابية التى كان يتعامل بها معى منذ قليل .

أصبح صوته خافتا ممطوطا ، وهو يحدثنى عن أهمية هذه الجلسة بالنسبة له . فهى جلسة أصدقاء من نوع نادر ، قد أتاح له وجودى فرصة الحديث فى موضوعات لا يستطيع أن يتحدث فيها مع كل الناس ، وهو واثق من رأيى فى نسبة الأصدقاء فى النادي ، كلها كلام فارغ ، وضياح وقت . أنها فى الحقيقة ضياح عمر .

وكم كان يتمنى مثل هذه الجلسة منذ زمن طويل ، يتحدث ويتفاهم حول الأمور الهامة في الحياة ، فقلت له اني اوافقه تماما ، بل اني سعيد بسماع ما يقوله ، واننا وصلنا الان الى مايشبه مفترق طرق . ويهمني جدا ان ابادلته الرأي في شيء يهمني بالدرجة الاولى وهو حقيقة مشاعره نحو « تو » ، واسرعت اقول له ، اني لا اهتم ، ولا الومه ، ولا احاكمه ، فليس هذا مقصدي ، كل ما اريده هو ان اعرف .

فتجاهل زهدي كل كلمة قلتها ، وكأنه لم يستمعني ، بل انا واثق انه لم يفهمني ، لانه مضى يتحدث عن الشلة التي تجتمع في النادي ، شكرى السفير ، ورفوف مدير البنك ، وسعفان رئيس مجلس الادارة وقيرهم وقيرهم ، كلهم يا استاذي الفاضل طاقات معطلة ، احوالها الى الاستبداد او المعاش ، وكان من الممكن ان تفيد البلد بهذه الخبرات العظيمة ، واذا كانت السلطة قد اخطأت وقرطت فينا ، فلماذا نخطئ نحن في حق انفسنا ونضيع وقتنا في الكلام الفاضي والهلس .

كنت استمع اليه وهو يبتعد عني ويوشك ان يتوه في ضباب بعيد ، وعجبت لضعفه وهو يعود الى الارتفاع ، واللهجة الخطابية تستولي عليه من جديد ، وبلغت ذروتها ، وهو يهتف امام الجماهير التي هي انا . وينظر في المرأة الوهمية التي يتألمها معجبا بنفسه ، قائلا : اعترف اني مسئول عن جلسات الهلس . . انا الذي جعلتكم تستسلمون لما انتم فيه من ضياع . ولكن هل هذه هي حقيقة زهدي . . ابدا . . وهل انا مرتاح لسلوكنا هذا ، مستحيل . . ونحن الان نستطيع ان نفعل شيئا . . ففكر معي في كل هذه الرعوس الكبيرة التي تجتمع في النادي ، لتبادل الشتائم وتلعب البريدج ، ماذا يحدث لو تجمعنا ، ووضعنا ايدينا في ايدي بعضنا بعضنا ، وقضارت رعوسنا ، وكان لنا رأى فيما يحدث في البلد ، اقسام لك ان حالنا سوف يتغير وسيكون لنا كيان ونفوذ ، ويعملون لنا ألف حساب ، لا تستهن بهذه الكفاءات المتقاعدة . . اليس هذا رأيك ؟

كان قد غاب عني تماما ، وكنت أفكر بسرعة متحمومة في حقيقة نواياه ، وكنت لم ابين بعد ، ما ادركه الان ، عن هذا الشد والجذب الذي كان بيننا حول السياسة من ناحية و « تو » من ناحية اخرى .

وقلت له مرتبكا :

— هذا يعنى أن نحول الى حزب ، وينتهى بنا الامر الى حفلة من حفلاتك آياها فى السجن .. فهل انت مستعد لهذا يا زهدى بك ..

فهر راسه مستنگرا وقال :

— ما هذا الذى تقوله .. المسألة لا تحتاج لحزب ولا يحزنون ، انت لا تفهمنى .. كل ما هو مطلوب يا أخى هو أن نجتمع مالنا من علاقات وصلات هنا وهناك .. وأن نتحرك معا .. نحن فى حاجة الى علاقات عامة .. هل تعرف أن أى مشروع كبير فى أمريكا يخصصون نصف ميزانيته للعلاقات العامة .. مثلا .. أنت تكتب فى الصحف .. وتستطيع طبعا أن تكتب مقالات عن الطاقات المعطلة امثالنا .. انا شخصيا مستعد أن اكتب لك سلسلة مقالات فيها دراسة عظيمة عن مفهوم الامن فى مجتمعنا ، وهكذا تظهر فى الصورة .. ويكون لنا دور .. ولا يضيع عمرنا فى النادى والبريدج .

كان اقتراحه مفاجأة لى ، فلم اتوقع أن يتحول هذا الرجل البدئ السليط اللسان ، الذى يتزعم جلسات النكات الجنسية ، ولا يستريح الا اذا خلت جلسة النادى من النساء ، ليتأوه ، ويصدر ايشع الاصوات ، يتحول هذا الرجل ، الى داعية لنشاط . ماذا اسميه ؟ جميع قوة نفوذ . او خلق نواة لركز. قوة كما نقول بلغة السياسة .

قلت له :

— الفكرة عظيمة ، ولكنى لن اتوسط لنشر مقال واحد لك ، قبل أن تحدثنى عما أريد أن أعرفه .

ومرة أخرى ، خيل الى انى لمحت شهاب القلق يمرق فى عينيه ، وقال بصوت يخلو من حماسه المعتاد عندما يسب ويشتم .

— يخرب بيتك .. هيه حكاية الدبانة .

قلت فى اصرار بليد :

— عرفت منك أنك قتلت الاب .. وسمعتك تقول انك كنت شهما ذا مروءة فتبينت الان .. وهذا شيء مثير بالنسبة لى .. اريد أن أعرف تفاصيله .

فنهتف وقد عاود لهجته المسرحية :

— لا .. ياسيدى .. هذه باشكاه ، وهذه باشكاه .

ثم اردف يشرح لى ، وقد أدرك انى لم أفهم .

— موضوع الاب شيء .. وموضوع الابن شيء آخر .
قلت :

— هناك صفة بينهما .
هتف فى ثقة :

— قطعاً لا .. هذا عمل أؤديه .. وأنفذ فيه الاوامر مهما كانت
نتائجه .. وذلك عمل أقوم به بمحض ارادتي .. لقد قلت لك هذا
الف مرة .. فاعتقنى يا أخى .. حتى تفرغ للكلام المهم .
قلت له :

— ان ما اتحدث فيه مهم جداً بالنسبة لى ..
وفتح فمه ، فاسرعت بالكلام رافعاً صوتى ، اكاد اتخذ نفس
اللهجة الخطابية .

— اذا كنت تريد ان تفاهم معنى ، فيجب ان يكون تفاهمنا كاملاً
ان موضوع « تو » هذا لايعينى فى شيء .. واقسم لك انى لاأعرف
حتى الان ما الذى جعلنى أسالك عنه .. افه شيء خرج من الهواء
من العدم .. وأول شيء جاد سمعته ، هو مارويته لى أنت عن والده
.. ولست أدري لماذا لاتشغلنى هذه القصة الآن — بقدر ماتشلفنى
صلتك أنت بالولد — بصراحة أريد ان أعرف ، هل أنت تساعد « تو »
لتخفر عن شعور بالذنب .
صرخ زهدى :

— أى ذنب يا أستاذ .. هذا آخر ماكنت أتصور صدور ع
رجل عاقل مثلك .

وانهال على هذه المرة بشتائمه البذيئة ، ولكن وعشة فى صوته
كانت تفضح ذلك القلق الذى يعانى منه . انها ليست نفس اللهجة
غير المبالية ألوفة الواثقة التى يطلق بها شتائمه فى النادي . هذه
شتائم دفاع ، لا شتائم هجوم .

وواجهته بابتسامة عريضة وقلت له :

— اشم كما تشاء ..

هتف متظاهراً بعدم الفهم :

— ما الذى تريده بالضبط .. ماهو هدفك ؟
قلت بسرعة :

— ولماذا حكيت لى ماحكيت ؟

— لانى كنت أريد أن ادخل معك فى الموضوع .. سألتنى عن تو
.. فحكيت لك عن أبيه والشيوعية .. والمصائب التى حدثت لى

والبلد . وبدانا نتفاهم .

قلت بغير تفكير :

— الموضوع يستحق ان اكتب عنه رواية .

قال :

— أعرف هذا . . .

قلت :

— ولذلك أريد منك تفاصيل أكثر . . هل تذكر يوم جئت لزيارتك في هذا البيت لأول مرة . . يوم سفر حسن الى كندا . . ألم أحدثك عن الصلة بين رجل الشرطة وكاتب الرواية . . وكيف أن كليهما يهتم بالتفاصيل الدقيقة ماخفى منها وماظهر . . التفاصيل يا جنرال أرجوك . . التفاصيل لا هذا الكلام عن الشهامة والمروءة .

تملئ زهدي على مقعده وقال :

— رغم أنك خبيت ظني فيك . . إلا أني سأحكي لك كل ما تريد ،

سأكون صادقا معك .

وأطرق برهة . . كأنه يتذكر نحيبا ، ووقع رأسه وقد رسم على شفتيه ابتسامة خفيفة مريبة . . ومضى يقول أنه سمعني الآن ، وأنا أذكر ابنه حسن ، وهذا التذكر يشعره بالوحشة والحنين الى ابنه ، ويعترف لي بهذه المناسبة أن المعروف الذي صنعه لتو ، كان له مقابل لم يطلبه من أحد ، ولكنه طلب من الله سبحانه وتعالى ، منه هسو وحده ولا أحد غيره ، طلب من الله أن يضع في طريق ابنه الذي في القرية ، رجالا يمدون له يد العون والمساعدة مثلما فعل هو مع تو . وهذا طلب لا يستطيع أحد أن ينكره عليه ، من حقه أن يفكر في ابنه ومن حقه أن يعامل الله بما يرضيه ، وهو يتوقع أن يرد له الله الثواب مضاعفا لابنه . . صدقني أنا مشتاق اليه . وأحيانا تنتابني الهواجس السوداء ، وأفكر في أنني سأموت قبل أن أراه ، واتعذب ، ولا أطيح نفسي ، وأحيانا تراودني فكرة تلح على أن أذهب اليه في كندا وأتوسل اليه . أن يعود ، فمن يدري ، قد يكون في حالة سيئة . أو يتضور جوعا ولكنه عنيد لا يريد أن يعترف بالهزيمة ويعود الى أبيه . . ثم هذه الأرض ، لن يتركها ، ومن يرثها ، أحيانا تخطر له أفكار جنونية ، أن يتزوج وينجب ولدا آخر ويتخلى عن هذا الولد الاحمق الذي هجره .

لقد صارح السفير شكري منصور بهذا الخاطر عندما زاره في بيته ، وقد نشأت بينهما علاقة خاصة لما يعانيه كلاهما من ولديهما ،

حسن هاجر ، ويسرى لا يتورع عن ضرب أبيه .. وزهدى يقول لشكرى ، ليت حسن بقى وضربنى . وشكرى يقول لزهدى ليت يسرى هاجر أو مات ولم يرفع يده على . ولما سمع شكرى بالأفكار التى تراود صديقه زهدى عن الزواج ، حذرته قائلاً : اباك أن تفعلها يا مجنون ، نحن فى سن لا نشمر فيه بالرقبة نحو المرأة ، لانسا أصحاب ، ان الذى يحرك رغباتنا هو التهاب البروستاتا ، ولو تزوجت يازهدى فسيفضى عليك بالالتهاب وتموت فى ستة شهور .

وضحك زهدى قائلاً :

— هل هذا يعجبك فى الرواية ؟

قلت له :

— كل ما تقوله يعجبنى .. ولكن .. لا فقهيب اذا عدت وسألتك .. ألم تشعر حقاً بأى رغبة فى مساعدة تو للخلاص من الشعور بالذنب ..

فهز رأسه ناعياً .. وردد :

— أبدا .. أبدا ..

سألته فيما يشبه التوسل :

— ساعدنى وأفكر ..

ولمحت لفرحتى شهاب القلق فى عينيه ، وسمعت صوته هادئاً خافتاً .

يشرح لى أن الامر ليس كما أريد أن اصوره . ولكنه عندما وجد « تو » أمامه لم يتمالك أن يقول لنفسه . هاهى الاقدار قد أرسلت هذا الولد بالذات لمتحننى فى أبنى حسن .

وسكت ناظراً الى فى استسلام يشجعنى على أن أسأله

يد .

فسألته :

— كيف التقيت به ؟

فتح فمها ليخبرني ثم أقلقه ، وقد ظهر عليه ارتباك واضح ، هاهو لأول مرة يطفح القلق والضعف .. يطفحان الى السطح .. وكان يسفولاً بمحاولة ترتيب الحكاية وتفاصيلها على النحو الذى يريد أن يصوره لى ، وبعد أن استقر الى صورة معينة ، قدمها لى على النحو التالى .

قابل منيرة بيجو ذات ليلة ، وكانت واقفة عند باب شقتها ، ويبدو انها كانت تترقب مجيئه من النافذة . فلما رآته قادماً أسرع الى

باب شقتها وفتحته ، وقابلته بلهفة غير عادية .. وسألته أن يدخل عندها لتحدثه فى أمر يهمها . أنه أمر كثيرا ما يحدث ، وهى تعتمد على مشورته فيما بينها وبين شرطة الاداب من صلات ، لانها تقدم لهم الكثير من المعلومات مقابل التساهل معها فى حدود ، وهذا أمر معترف به ، ولا مفر منه لتنفيذ اعين الشرطة الى عالم الدعارة والمومسات .

وفوجيء زهدى بوجود شاب من نوع « الهيبى » فى صالة بيت منيرة . مخلوق منفر قدر ، ان زهدى يشعر شخصيا بالقرف من هؤلاء الاولاد الهيبى . بصراحة لا يطيقهم ، ولو تركوه يتصرف على حريته لآبادهم سحقا ، لانهم فى نظره أبشع وأوسخ من الصراصير والبق . اهانة للرجولة ، وكان طبيعيا أن يتأفف زهدى من وجود الولد ، ولم يخطر بباله أن منيرة سوف تتحدث معه فى الموضوع الهام الذى يشغلها أمام هذه الحشرة ، وأسوأ من هذا ، أن الولد الحشرة ظل جالسا مكانه منكوش الشعر بقميصه المزركش بهرش شعره ، دون أن يكلف نفسه الوقوف احتراما للرجل الذى دخل . وهو لابد يعلم من منيرة ، من هو . وما يكون مقامه .

وفوجيء زهدى بمنيرة ييجو تشير الى هذا الهيبى ، وتسأله أن يساعده فى البحث عن عمل ، ارتفع الدم فى رأس زهدى ، وكاد يضرب منيرة ، لولا أن تماسكته ، وصاح هادرا فيها ، انها جنت ، اذ تجرؤ على مثل هذا الطلب ، اذ كيف يخطر ببالها أن يساعده هذا الحيوان الحقير الشاذ الذى لم يكلف نفسه مجرد غناء الوقوف احتراما له .

وهنا انتفضت الحشرة واقفة ، وتلثم بكلام غير مفهوم زاد زهدى حنقا ونفورا منه . وقالت منيرة أنه يقول أنه وقف عند دخوله ثم جلس فصرخ زهدى ، ومن آذن له بالجلوس طالما أن سيده واقف . ولعن سنسيفل جدوده ، وقال لمنيرة ، انه لا يعرف اصحاب المواخير التى تستعمل امثال هؤلاء الشواذ المنحرفين ، وانها اذا كانت تستخدم امثاله لاستعمال زبائنها ، فسوف يقطع صلته بها ، وسوف تتغير معاملة الشرطة لها . وسوف تعود الى السجن مرة أخرى أو على الاقل سوف يطردها من هذا البيت .

ويعترف زهدى باعجابه بمنيرة فى هذا الموقف .
المرأة تحملت كلامى فى هدوء كامل . امرأة واعية قادرة ، لا تهتز بسهولة أمام أى تهديد رغم انها واثقة من قدرة زهدى على تنفيذه ،

كل ما فعلته ، هو أن انحنيت وخلصت شبيبتها ، وتقدمت في هدوء بجسمها الضخم ، وانهالت عليه ضربا ، والولد ساكت لا يتحرك ، يكتفى باطراقة من رأسه الضخم ، متلقيا ضربات الشيشب في أذنان واستسلام ، ولاحظ زهدى أن ضربات منيرة ، ليست بالعنف الذي توهم به شتاؤها ، كانت تضربه بحنية ، والولد الحقيق يكاد يخفى ابتسامة ، وأخيرا التفتت منيرة الى زهدى وقالت له انها ضربته وأدبته بما فيه الكفاية . ولكن ما حيلتها وهذا المغفل يحتاج الى مساعدة ، ثم اندفعت تنحنى على يد زهدى قبلها وتتوسل اليه أن يفر للولد قباه وحماقته . وان استجابة زهدى لطلبها هو جميل العمر الذي لن تنساه وسوف يجعل منها جاريتها ، يتصرف فيها كما يشاء .

كان زهدى قد قرر ألا يفعل شيئا لهذا الحقيق المنفر . ولكنه واجه محاصرة منيرة له . واهتمامها البالغ بهذا الحقيق .

وقال زهدى متخلصا من الموقف ، أنه سيفكر في الامر . قالها في برود وقد أسرع الى الباب يريد الانصراف ، فتشبثت منيرة بذراعه ملهوفة مستغيثة ، وقالت له ، أنت تضحك على ، ولو كنت ستفعل شيئا لسالت عن اسمه وتعليقه وظروفه . ولم يجد زهدى مغرا من أن يذعن لها تخلصا من الموقف . وصاحت منيرة في الولد أن يعطيها الورقة ، فأخرج لها ورقة اختطفها من يده وأعطتها لزهدى ، الذي تظاهر بقراءتها ، ودسها في جيبه وسارع بالانصراف وصعد الى مسكنه ، وهو يشعر بالضيق والحرق ، يقلب في رأسه شتى الخطط التي يرد بها لمنيرة الصاع صاعين .

حتى جاءت ساعة نومه بعد أن شاهد في التليفزيون برنامج السينما والحرب ، وكان يفكر في جملة اعجبته قالها ضابط الماني في معتقل للأسرى ، كان يقول لاحد زملائه بعد أن قتلوا مجموعة من الأسرى حاولوا الهرب « هناك بعض الأشخاص تشعرون بالأسف لو تم ، وهؤلاء الذين قتلناهم أفضل من أولئك الفران المدعورة التي تنتفض من الخوف ولا تجرؤ على مواجهتنا . . عاملوهم بشدة . . فالذين كانوا يستحقون شرف الحياة قد اختاروا الموت » كان زهدى يتقلب في فراشه بعد أن أطفأ النور استعدادا للنوم ، وليس في رأسه سوى هذه الكلمات الباردة ، وصورة الضابط الألماني الوسيم بوجهه النبيل الصارم والموثوق على عينه عندما اختفت صورة الضابط وقفزت مكانها صورة ذلك الولد الرقيق الذي رآه عند منيرة بيجو . وتذكر الورقة التي تحوى معلومات عنه ، والتي يحتفظ بها

فى جيب سترته ، ولم يستطع النوم ، كان يريد أن ينهض ويقرأ ما فى الورقة من بيانات .

وأضاء الأباجورة ونهض ، وأخرج الورقة ، وما كاد يقرأ الاسم ، حتى تذكر والداتو . . الاسم هو الاسم ، لم يتطلب الأمر لحظة تردد واحدة ، منظر الولد برأسه الكبير ، ووقفته الصامتة ومنيرة تنهال عليه بضربات الشيشب ، لم تسمح له بأن يتردد ، الولد ابن ذلك الرجل . . هذا يقين قاطع حاسم لا يسمح بذرة شك . صدف غريبة جمعتها الأقدار ، الفيلم والضابط الألماني والمعتقل والأسرى وذكرياته عن السجون وشوكت وذلك الرجل الذى مات . واضراب المعتقلين عن الطعام حتى لا يأكلوا لحمه ولا يشربوا دمه ، وترحيلهم الى الواحات ثم ذلك المشهد العجيب الذى وقف فيه حدادا على الرجل . شهيد الطبقة العمالية . والسفير . والكلام عن الصداقة وتغير السياسة ، وخروج المعتقلين . . ووثوبهم الى المناصب وانتشار الأفكار الشيوعية علنا فى البلد وأحاطته على المعاش . . وهجرة ابنه ، ثم تدور الدوائر وإذا به يواجه ابن نفس الرجل . فى صورة ذلك المسخ المنفر المشوه الشاذ .

وفحص زهدى المعلومات المدونة فى الورقة ، السن ٢٤ سنة ، حصل على الثانوية علمى ، طالب فى كلية الزراعة بالسنة النهائية ، ما الذى يعطله عن الدراسة وقد شارفت على نهايتها . انه يطلب الوساطة فى امتحان قبول وظيفة فى فندق فلسطين . . يقول انه يجيد ثلاث لغات . . كلام غير معقول : وفلجأة خطر لزهدى السؤال الذى كان يجب أن يفكر فيه أول الأمر ، هل يعرف هذا الولد صلة زهدى بأبيه . هل تعرف منيرة بيجو . هذه أسئلة بدئية . ويجب أن يعرف الإجابة عنها فوراً ، فما الذى يدريه أن هناك شيئاً يدبر له فى صفيحة الزبالة التى تجمع بين منيرة بيجو و « تو » .

الفصل الثامن

طار النوم من عيني زهدى ، وفتح النافذة واطل على مدينة
الملاهي القائمة تحت بيته ، كانت غارقة فى الظلام ، تبرز هياكل
مراجيحها كاشباح خرافية ، دنيا العجائب تحت ، هناك ، هناك ،
هاجعة ، ودنيا العجائب ، فوق ، هنا فى رأسه تضج بصخب عنيف
كان لا يقوى على التفكير ، لان الذكريات كانت تغلبه ، ولكن خواطر
محددة كانت تهاجمه . لو كان « تو » يعرف صلته بمقتل والده ،
فلماذا لجأ اليه ليساعده ، هل يفكر الولد فى الاقدام على عمل
طائش ؟ وهنا ابتسم زهدى وقال لى انه استبعد هذا الاحتمال .
كانت ابتسامته تخفى مرة اخرى شهاب القلق ، ووجدتنى أقول
بصوت أقرب الى الهمس :

— ولماذا تستبعد مثل هذا الاحتمال .

اجاب بسرعة وانفعال :

— لقد تعلمت من مهنتى الا استبعد اى احتمال ، كل شيء يمكن
ان يحدث .

يلوح بيده فى الهواء ، كأنه يطرد خاطر الذى يقلقه ، وانطلق
يحدثنى عن ذلك الشعور الذى استولى عليه ، والذى بدا لى انه حالة
نفسية معقدة ، ولكنها انسانية تماما ، فاذا كان زهدى قد رفض
فكرة ان « تو » يتربص به ، وأنه يريد به شرا ، فذلك لان مشاعر
اخطر وأفدح قد هاجمته وغلبته على أمره تماما ، فقد أيقن وهو ينظر
الى أشباح مدينة الملاهي ، ويتجول بعينيهِ فى السماء الملبدة بغيوم
فضية تخفى ضوء القمر ، ان عين الله ترقبه ، وان هذا الوهج الفضى
المضىء فى سماء الليل ، يقول له ان الله قد أرسل له « تو » ليمتحنه
فى حسن ، وان ارادة الخالق ، هى التى منعت عنه النوم ، وهى التى
دفعته الى ان يخرج ورقة « تو » من جيب سترته ، وهى التى أبلغته
ان هذا الولد ، هو ابن ذاك الرجل ، ثم هى التى دقعتة الى ان يفتح
النافذة ، ويطل منها على السماء . نعم هذه هى الحقيقة ، وهو

واثق منها الان . اكثر منه فى أية لحظة اخرى ، هاهو يصوغها ويواجهها ويقولها لى كاملة واضحة لا يشوبها لبس أو غموض . وهو يعترف لى أن هذا المعنى لم يتضح له تماما قبل هذه اللحظة التى يحدثنى فيها .

واردف يقول :

— اساعد هذه القدارة .. واتحمل نفورى منها ، حتى يرضى الله عن ابنى .

انها علامات — كما يقول زهدى — تظهر للانسان فى حياته . وعليه أن يقرأها ، وأن يفهمها ، وأن يستجيب لما تتطلبه منه ، والا حاقبت به نقمة وغضب الله .

ولقد تأثرت قى تلك اللحظة بحدثه ، رغم أنى لا افهم هذا المنطق العجيب الذى يتحدث به ، تأثرت لانه كان يخاطبنى معبرا عن كل مافى نفسه من أبعاد فى صلته بالكون وخالق الكون . ومعبرا عن كل مافى نفسه من أبعاد فى صلته كابنه الذى تركه وهاجر . كان لا يتحدث من خبراته كضابط شرطة ، ولا يتحدث عن اطماعه فى السلطة والنفوذ ولا يتحدث عن شهواته وفجوره ، لقد تخطى كل هذا ، ليكشف لى آخر ماعنده ، وكل ماعنده ، صلته بالكون والرب ، وصلته بالحياة واستمرارها فى ولده .

قال ببساطة أشبه بالصفاء النادر الذى لم اتوقعه أبدا فى مثل هذا الرجل :

— بعد هذا الذى حدثنى به قلبى .. واحساسى بأن الله يمتحننى فى ابنى الوحيد ، لم أعد قادرا على مواجهة أى احتمال آخر .. كان لابد لى من أن أساعده .

قالها فى استسلام من لا حول له ولا قوة ، امام أمر صادر من السماء . كان يبدو لى ساذجا الى اقصى حد ، ولكنى لم أشعر بقوة كلماته وخطورتها مثلما شعرت فى تلك اللحظة . هاهو الرجل الذى لم يتورع عن ارتكاب جرائم القتل والتعذيب ، الذى يتبساهى « بحر فنته » ، الفاجر الداعر ، البذئ ، السليط اللسان ، يكشف لى انه مازال يحتفظ فى اعماق كيانه الرهيب ، ببلدة سذاجة ، وأن لديه من الامكانيات مايجعله ينجحى السماء فى الليل ، ويتبادل معها الحديث ، ويتلقى الاوامر ، بأن يتواضع وبلوث يده بمساعدة من يكرهه أو ينفر منه ، كأنه يلحق الابرص ، ليحوز رضاء صاحب

الامر وخالق الكون .

وفي الصباح ، كان زهدى يترك باب منيرة . ودخل عليها حجرة نومها وأيقظها ، وسألها من أين جاء لها ذلك الولد . قالت له وهي تترك النوم من عينها ، أنه ولد غلبان ، صاح فيها يسألها ماصلتها به ، فقالت له كلاما ملتويا غامضا ، خلاصته أنها أحبته كابنها ، فستمتها وسبها ، وطلب منها أن تقول له أى شيء آخر ، فبر هذا الكلام الفارغ عن الحب ، ولكنها صممت فى عناد أن هذه هى الحقيقة . الولد جاء الى البيت مع أحد الزبائن الذى كان يتحدث معها ، بينما جلس « تو » صامتا ، ولم تنتبه اليه ، ولم تكثر بأمرة ، فقد بدأ لها أنه جاء كتابع او سكرتير للرجل ، وحدث أن نهض «تو» فجأة وقال لها متلعثما ، أنه ذاهب لشرب ، فسألته بدهشة هل يعرف مكان الفريجيدير والمطبخ فقال ببساطة ، أنه لا يريد أن يزعمها وأنه سيعرف طريقه ، وتركته لحاله ، ومضت دقائق قبل أن تنتبه الى غيابها ، وشعرت بخوف مفاجيء فنهضت تبحث عنه ، ودخلت عليه فى المطبخ ، فماذا وجدت ، كان « تو » قد شعر عن ساعديه ، يغسل الاطباق والصحون فى الحوض . كان منهمكا فى عمله بحماس وكأنه فى بيته . فاجأها النظر تماما ، واذا بها تقول له يا ابنى . وكان يضحك ، وقال لها يا « تانت » وأنه لاحظ أنه لا توجد شغالة فى البيت ، وأنه فكر فى أن يساعدها ، كانت لا تصدق ما تراه ، وعادت مسرعة الى الزبون تروى له ما شاهدته ، فلم يدهش لما سمعه ، وقال لها ، أنه شاب ملحوس . ولكنه طيب القلب الى درجة الهيل . وعندما حانت لحظة انصراف الرجل ومعه تو . أمسكت منيرة بيد تو ، وسألته بكل ما يحتويه جسدها الضخم من فضول ، ما الذى جعله يفعل ما فعل ، فارتبك وتلعثم ، ولم تفهم منه سوى قوله ، أنه وجد شيئا يستطيع أن يفعله فى تلك اللحظة ففعله . فقالت له ساخرة وما الذى تطلبه الان لقاء عمك ؟ فاضطرب واحمر وجهه ولم تستطع منيرة أن تتبين من خلال لعنته سوى كلمة أبدا . . أبدا . . وبعد مرور حوالى اسبوعين ، فوجئت به منيرة يترك بابها . انا كنت بالقرب من هنا يا « تانت » قلت أفوت عليكى . . حاولت أن تعرف سببا آخر لمجيئه غير رغبته فى رؤيتها فلم تفلح . ومرة أخرى أكد لها الزبون الذى جاء به لأول مرة ، أن « تو » هكذا ، واضساف محذرا ، أنه قد يفعل معها مثلما يفعل معه ، فهو أحيانا يهبط عليه فى بيته ، ويقضى عنده أياما قد تطول الى اسبوع وأكثر ، ولكن

« تو » لم يحاول أن يبني عندها أبداً ، كان يزورها وكأنه قريب ، بينه وبينها صلة دم أو نسب ، ووجدت نفسها تعتمد عليه أحيانا في بعض أمورها ، فكان يلبي طلباتها بسرعة حقيقية ، اذهب يا « تو » لشراء كذا وكذا من السوق . فوت على الاجزاخانة ، التليفون عطلان كلم النمرة دى وقول لفلان كذا وكيت . . حتى جاء وقت فكرت فيه أن تستخدمه لقاء أجر ، ولكنه كان يذهب فيختفى أسابيع ولا تدري أين ذهب ، ثم يعود فجأة ، وفي يده زهرة قطفها من حديقة عامة . ولد غريب ، غير طبيعي ، ولكنها أحبه . حتى البنات اللاتي يدرن في فلك منيرة أحبينه . كان يضحك معهن وكانهن شقيقاته . وأحيانا كن يتخاطفنه ليذهب مع واحدة منهن الى السينما في يوم تكون خالية فيه من الشغل . لم يحاول أبدا الاقتراب من واحدة منهن ، حتى خشيت منيرة أن يكون الولد فاقدا لرجولته ، فتدبرت الامر مع البنات ، وافقت مع واحدة منهن كانت أكثرهن تعلقا به ، وسمحت للنيت أن تكشف رجولة تو ، وهيات لها الظروف في بيتها ، رغم أن منيرة لا تسمح أبدا بأن يتم أى فعل من هذا القبيل في بيتها ، أن بيتها هو بمثابة الادارة العامة التي تتم فيها الاتصالات ، وتعدق فيها الاتفاقات ، اما التنفيذ ففي أماكن أخرى ، هذا شرط أساسى لضمان استمرار صلتها الودية بشرطة الاداب . ولكن من قال أن « تو » زبون . انها تعتبره واحدا من أقاربها . بل هو أصبح بمثابة ابنها . وأعدت منيرة الاحتفال المناسب . ملوخية بالارانب ، وسهرة عائلية مع تو وسعاد حتى منتصف الليل ، ثم الحاح من منيرة أن يقضى «تو» الليل في بيتها ، ولم يدع حتى قالت له أنها تحتاج اليه في أمر هام في الصباح . وانتظرت منيرة اللحظة المناسبة التي تنسحب فيها ، تاركة تو مع سعاد وحدهما ، ولكن « تو » لم يبد عليه أنه قد فهم شيئا آخر ، غير أن منيرة هي « ثانت » وان سعاد شقيقته . واضطرت منيرة أن تضع النقطة على الحروف . قالت له بصراحة . ان لديها حجرة نوم واحدة غير حجرتها الخاصة ، وان في تلك الحجرة سريرا سوف ينام عليه ، وقد أعدته لراحته ، ثم قالت له ان سعاد سوف تقضى هي الاخرى ليلتها في البيت وسوف تنام مع تو في نفس السرير ، وفي الصباح قدمت سعاد تقريرها الى منيرة ، وكان تقريرها مطمئنا تماما عن رجولة تو . رغم اعتراف سعاد بأنها هي التي قامت بكل المقدمات الضرورية للوصول الى معرفة الحقيقة

وكانت هذه هي أول عملية تقوم بها منيرة مجاناً لوجه المعرفة ، لا من أجل المال . الطلب الوحيد الذي طلبه « تو » من منيرة ، هو ، اذا ما كانت تعرف احدا مهما يستطيع ان يتوسط له للعمل فى فنسندق فلسطين . عندئذ فقط فكرت منيرة فى اللجوء زهدى . وكان ماكان . رغم ان زهدى استراب مما كانت ترويه له منيرة ، وخيل اليه اكثر من مرة انها تسرح به ، الا ان نفس الريبة داهمته بشعور آخر على النقيض من الريبة والشك ، فقد طفى عليه احساس بان هذا الذى حدث بين منيرة وتو ، كان ايضا من تدبير الاقدار ، هي التي جعلت هذه المرأة الجبارة تلين وتحب تو ، وتعامله كابنها ، هي التي حطمت كل مافى هذه المرأة من جشع ولا مبالاة باى مخلوق فى الدنيا لا تكسب من ورائه قرشا . انه يعرف منيرة جيدا ، امرأة تتاجر بالاعراض ، تبيع نفسها وتبيع ابنها ، لتكسب من الدعارة ، فما الذى جعلها تتحول على هذا النحو مع « تو » بالذات . نعم ، انها مشيئة ارادة الله ، قدفت بتو نحو زهدى عن طريق منيرة ييجو ، قدفته سؤالا تمتحن به الاب ، وتنتظر منه الاجابة ، فاذا نجح انقذت ابنه ، واذا فشل قضت عليه .

قال زهدى لمنيرة :

- سوف اساعده .

فتهلل وجهها فرحا ، وهجمت عليه تقبله ، فدفعها بكلتا يديه ، شائما لاعنا موجهها اليها والى تو كل مايعرفه من الفاظ قدرة بذيئة . ولكن منيرة لا تهتم الا بالتصرفات العملية والنتائج ، كانت شتائم زهدى اكاليل ورد تعنى انتصارها فى تحقيق رغبتها فى مساعدة « تو » . ويهتف زهدى فى وجهى فيما يشبه الصراخ ، انها ليست رغبتها .. مستحيل .. انها رغبته هو ، ورفع اصبعه الى السماء . وكان منظره ساذجا شديدا بالبلاهة . وكان رغم ذلك قويا مؤثرا . وقبل ان ينصرف سألها ذلك السؤال الذى كان يريد ان يبدأ به . هل تعرف شيئا عن عائلة تو . قالت له انها لا تعرف الكثير . وانها سألته عن امه ، فقال انها تعيش فى طنطا مع عمه الذى تزوجها بعد موت والده . وانه يعيش وحده فى الاسكندرية . فسألها وهو يتظاهر بجمع معلومات قد تفيده فى البحث عن وظيفة مناسبة اذا ما كان قد حدثها عن ابيه . فقالت له انها لا تعرف عنه شيئا سوى انه مات وشغل زهدى انها تكذب ، ولم يقتنع بان هذا هو كل مايعرفه ، ولكنه

فضل أن يحتفظ بشكوكه لنفسه . وسألها أخيرا وهو يودعها ، اذا ما كان تو يعرف من هو زهدى . فانطلقت منيرة فى نفاق لا يفسد ، قائلة ان كل الناس تعرف من هو زهدى بك وتعرف أهميته ونفوذه فاضطر ان يسألها وهو حائق ، عما اذا كان تو هو الذى اقترح وساطته ام هي . فقالت منيرة أنها هي التى فكرت فى ذلك . ثم سألتها فى خوف حقيقى اذا ما كان قد عدل عن رايه او أن هناك شيئا مالا يرضيه فقال لها انه لا شيء هناك . وطلب منها أن يتصل به « تو » فى النادي ليخبره بما يستطيع أن يفعله . .

وهنا سكث زهدى . وبدأ لى أنه مرهق . اسند ظهره الى المقعد وملا صدره من شهيق طويل ، يعقبه زفير لاهث ، يكاد لا ينتبه الى وجودى ، ولزمت الصمت ، ولو كان قد طلب منى فى تلك اللحظة أن أتركه وشأنه لفعلت ، فقد رثيت لحاله ، وشعرت نحوه بشفقة حقيقية ، أحرجتني حتى فكرت فى أن استأذن منه وانصرف ، لولا أنه بدا كمن يفيق . ويعتدل فى جلسته ويقول لى وكأنه نسي تماما ماكان يتحدث عنه . . انه يعرف تاريخ منيرة ، وجعل يثرثر بكلمات منها ، قال انها كانت بنت ناس طيبين ، وان جمالها المروع فى صباها هو الذى انتهى بها الى هذا المصير ، زوجها وهى فى سن المراهقة من ضابط صغير طالش كان يتركها وحدها ويلعب القمار ، واذا خسر عاد الى البيت ولازمه وتكد عليها بالشتيمة والضرب واذا كسب فلا ترى وجهه ، وانتهى بها الحال الى التعرف الى سيدات فاسدات من الطبقة الراقية ، تعرفت عن طريقهن باعيات باشوات أيام كان الاعيان اعيانا والباشوات باشوات حقيقيين لاكباشوات السينما والتلفزيون فى هذه الأيام ، وفتن بمنيرة «ع» باشا الذى كان وزيرا للاوقاف يوما ما . وكانت له شهرته المدوية فى عالم الهلس والمغامرات النسائية ، وقد عرفه زهدى وجلس معه فى شبرد القديم الذى احترق . وراه يشرب الويسكى فى فنجان شاي . ويقول ان الويسكى حلال شرعا . لانه ليس خمرا فهو مقطر والمقطر حلال والمخمر كالنبيذ والزبيب هو الحرام . وكان « ع » باشا هو المنقلد لمنيرة من زوجها . فقد تدخل فى الطلاق ونجح فيه ، واشترى لها أيامها عربية فورد فارهة ، كانت تتركها وقد ارتدت معاطف الفرو الثمين ، وزينت جسدها باللؤلؤ الحر ، وتدلى من أذنيها قرطان من الماس ، وراى زهدى أساور الذهب البندقى فى شكل ثعابين تتلوى على ساعد منيرة من رسغها حتى منتصف ذراعها .

كانت آية فى الجمال والروعة والابهة . ذات مرة رآها مع الباشا فى بنوار فى الاوبرا الإيطالية وكان قد حصل على تذكرة من صديق له . ولم يشاهد شيئاً فى الاوبرا ، ولم يسمع غناء . كانت عيناه لا تغادران وجه منيرة ، حتى لفتت اليه الانظار ، ولكنه لم يهتم . ثم انقلب الحال . وضاع الباشا مع من ضاعوا من رجالات البلد . وقضى بعض الوقت ضيقاً فى السجن ، ولكن زهدى - وكان مازال ضابطاً صغيراً فى مصلحة السجن - استطاع ان يجعل من حياة « ع » باشا فى السجن احسن من حياة نزيل الهيلتون او الشيراتون . كان لديه كل شئ ، ولا احد يناديه الا بلقبه معالي الوزير ، وسعادة الباشا وكان الطعام يصل اليه كل يوم فى شبه وليمة ، صوانى الحمام المحشو بالفريك ، والديوك الرومى والارز بالخلطة المضبوطة بالزبيب والصنوبر والبندق ، والتفاح الأمريكانى ، والكنافة والبسبوسة ، وكانت منيرة هذه تبيع من مصاغها لترسل للباشا الهدايا ، أحدث اللواغات وعلب السيجار روميو وجولييت وبارتجاس وكوفيات كشمير وكل مايجبه قلبه . وكان ضباط المصلحة الكبار يزورونه من وقت لآخر لتلبية كل طلباته ، أحياناً يذهب الى المستشفى ، وتفتح له الزيارات ، وهكذا عاش فى نعيم وقضى فترة استجمام ثم خرج وسافر الى أوروبا . وبعد سفره تدهورت حال منيرة التى أرادت ان تصحبه فرفض وتخلي عنها . وبعد سنوات كانت الإسكندرية تتحدث عن منيرة فورد التى تبحث عن باشا آخر فلا تجد ، حتى تحطم الوهم ، وواجهت الحقيقة المرة وباعت الفورد التى كانت تستخدمها فى صيد رزقها ، وأصبحت كجندى فقد سلاحه فسرعان ماثلقت الضربة القاضية بالقبض عليها ودخلت السجن ، وخرجت منه مضعضعة ولم تعد كما كانت ، ولكنها أصبحت امرأة مجربة سافلة عريضة فى السفالة . ومع ذلك فهى على صلات حسنة بالشرطة ، تقدم لهم مايلبونه من معلومات ، ولا غرابة فى هذا ، فالشرطة لا تستطيع ان تقبض على كل مومس فى البلد ، والا ضاقت السجنون بهن ، واضطرت الدولة الى بناء عشرات السجن الجديدة . ان قوة شرطة الاداب لا تجرى وراء كل مومس ، انه يكفيها ان تسيطر على الموقف ، فالدعارة ستظل موجودة ، ومن المستحيل منعها .

ورفع زهدى يده كأنه يتدارك شيئاً وقال :

— لا مؤاخدة .. فى الحقيقة أنا كنت أريد ان اتذكر كيف التقيت

بالولد تو فى النادي فسرحت وحدثتك عن منيرة بيجو ، على فكرة
أنا الذى غيرت الاسم .. قلت لها ان الاسم المناسب هذه الايام هو
البيجو .. لان الدين يذكرون الفورد هم العجائز امثالنا ..

ابتسمت له مشجعا ، رغم أن الكثير مما كنت اشعر به نحوه من
شفقة قد تبدد مع هذه الشطحة التى اندفع فيها ، كنت لا املك منع
نفسى من المقارنة بين الكيفية التى استقبل بها والد « تو » فى السجن
والحفلة التى أقيمت له ، وذبح فيها الرجل ، وبين تلك الولايم التى
تذبح فيها الديوك الرومية من أجل « ع » باشا ، والتكريم الذى
يقابل به هو وامثاله فى المستشفيات للعلاج والتمريض والاستحمام
باسم السجن . كنت أواجه هذا الانحطاط العقلى والاخلاقي السافر
الذى يجعل زهدى يتكلم باعجاب وامتنان عن جمال منيرة عشيقة
الباشا ، لانها ترفل فى الحرير والفراء وتزدان بالجواهر والماسات
وتركب عربة فورد فارهة ، ثم يتحدث عنها كامرأة سافلة فى مستنقع
او صفيحة زبالة ، لان الجاه والمال قد تخليا عنها . ان هذا الرجل
لا يدرك مدى ما فى عقليته ونفسيته من تشوهات ، وهو لا يدرك ان
مجرد وجوده وتسلمه لآى نوع من السلطة ، بل ان مجرد احتكاكه
بالآخرين كفيل باحداث عاهات فى نفوسهم . ولكن مهلا . لا يجب
ان اندفع وراء انفعالاتى . ويجب ان ألزم الحذر ، حتى يكمل تصورى
هذا اذا استطعت حقا ان أصل الى صورة متكاملة لهذا الذى
اكتب عنه .

وسمعت زهدى يروى لى كيف دخل عليه « تو » النادى ،
وكان قد شذب شعره بعض الشيء ، ولم يشك فى ان منيرة قد
تدخلت فى ذلك . كان زهدى يتفرج على بعض لاعبى البريدج انتظارا
لدوره ، وترك تو واقفا . وقال له فى حنان لم يكلفه الكثير ليصطنعه
لانه كان يفكر فى ابنه « اسمع باشاطر سوف أساعدك ، وان شاء الله
سيكون ذلك قريبا . ولكن لا تقل كثيرا على موضوع فندق فلسطين »
فقال له تو على الفور ، انه سعيد بأى عمل ، وبرر ذلك بحاجته الى
المال لانه يعيش مستقلا عن أهله . وهنا سأل زهدى مباشرة عن أبيه
فقال تو انه مات . سأل زهدى ، من هو ، ما اسمه وماذا كانت
وظيفته . قال تو انه كان مدرسا . ولم يذكر أى شيء عن مقتله . وقال
زهدى مواجهها تو الذى كان يتلثم فى اجاباته :
« أنا يا أبني ضابط وأعرق من هو أبوك .

فأجاب تو بسرعة مرتبكا :
- سعادتك تقدر ظروفي .

ويقول زهدى معلقا على هذه الاجابة انها كانت تبدو صادقة .
موحية بان تو لا يعرف شيئا عن صلة الرجل الذي يخاطبه بابيه . ومع ذلك فهناك احتمال ضئيل بأنه بارع في التمثيل . ولكن على أية حال كانت لا تبدو على تو شراسة ، أو ما يشير الى أنه يعتزم أمرا طائشا ، وتسمع زهدى فانسحب من مائدة البريدج ، وجذب تو من يده الى ركن في النادي واجلسه ، وجعل يسأله عن صلاته بمنيرة ، وما اذا كانت تعرف شيئا عن أبيه . فأجاب تو بأنه قال لها فعلا أن والده مات في السجن . فقال له زهدى في وقاحة سافرة . انه يدرك الآن سر اعجابها به ، فهي ايضا كانت نزيلة السجن مثل أبيه ، ولم يسد على تو اكتراث بهذا الحديث ، ومرة اخرى شعر زهدى بالاطمئنان ، الولد يتقبل منه كل شيء . واذا كان لا يفعل ذلك عن عمد ، فلابد أن الاقدار هي التي جعلته طيعا لتسهل مهمة زهدى في مساعدته . .
وقال زهدى لتو ، ان عليه أن يمر عليه بعد بضعة ايام حتى يكون قد نظر في أمره . ويعجب زهدى مما حدث له بعد ذلك ، فقد وجد نفسه غير قادر على التحدث مع أحد في مساعدة تو . رغم أن العشرات من الوجودين في النادي يستطيعون بكلمة واحدة منهم أن يتوسطوا له في وظيفة هنا أو هناك . وكان تو يتردد على الناي ، فيطلب منه زهدى الانتظار يومين آخرين ، وتعود « تو » على دخول النادي ، واستطاع بسرعة غريبة أن يتعرف على كثيرين من اولاد الاعضاء في مثل سنه ، وجلس معهم يلعب البريدج . وفوجيء زهدى بمن يسأله ذات مرة ، عن « تو » وصلته به . واذا به يجيب في عصبية :

- مالكش دعوة يا أخى .

وبدا يسمع الهمسات التي تدور هنا وهناك ، وهو قادر على تبين ما يدور في الخفاء ، وعرف أنهم قالوا أن زهدى قد استعان بهذا الولد في أعمال خاصة بالمباحث او المخابرات . . وسكت ، وقال لنفسه ، ليتوهموا اى شيء . . ملعون ابوهم . . بل سره أنهم خائفون .
والفتت زهدى الى وسالتى :

- هل خفت انت أيضا ؟

قلت له :

- طبعاً . .

فضحك ، وقال :

— طبعا ستحكي لهم كل ما رويته لك الان .

قلت متحيرا وقد فاجاني بالسؤال :

— لا ادرى .

قال :

— اريد ان تحتفظ به لتكتبه فى روايه .

قلت مرجبا بهذا المبرر الذى ساقه لى :

— فكرة .

فقال :

— فى الحقيقة .. انا لا يهمنى ان تقول لهم حقيقة الولد .. لولا
خوفى من ان يسيئوا اليه . على الاقل من باب الرحمة او الانسانية ..
لو عرفوا ان والده كان شيوعيا .. فلن يرحموه .

قلت فى دهشة :

— حتى لو عرفوا كيف مات .

قال متفاخرا :

— لو عرفوا .. سوف يمنحوننى نيشانا .. هل تشك فى هذا ؟

قلت :

— ابدا .

فحدجنى بنظرة طويلة .. قبل ان يقول ، انه وجد نفسه فى
نهاية الامر يدخل معركة مع اعضاء النادى عندما قرروا طرد تو ، لانه
يتردد على صالة اللعب ، ويختلط بالاولاد .. مع انه ليس عضوا ..
فلما شخط فيهم زهدى ، سارعوا بتعيينه معاونا لصالة البريدج .

— وهكذا استرحت .

فسالته :

— كيف استرحت .

قال كالمخاطب نفسه :

— فى الحقيقة .. كنت اريد ان يبقى الولد بالقرب منى .

فسالته مستفسرا :

— اشعرت بماطفة ابوة ؟

قال وهو يصدر شخرا بديئا :

— ابوة .. ربما يامسىدى .. انها حالة ركبتنى .

فقلت له :

— ولكنك انزعجت عندما علمت بحسبكاياته مع رجال الشرطة

ومشاجراته التي لا تنتهى .

فسألنى باهتمام :

- ما رأيك انت ؟

قلت :

- لا أدرى .. ربما كان ما حدث لوالده . هو السبب ..

قال زهدى مفكرا :

- اى هو يعرف .. ولكنه لا يعرف انى كنت الرجل الذى اشرف
على العملية .

قلت مترددا :

- من يدري .

قال لى زهدى فجأة :

- لقد فكرت فى مصارحته .. ولكنى لم أستطع .

قلت مؤمنا على كلامه :

- لا اظن انك تستطيع .

فقال وهو يزفر الهواء بقوة :

- اليس هذا امتحانا غريبا .

ثم عاد وقال مؤكدا .. انه واثق ان تو لا يعرف عنه شيئا لقد
ذهب الى منيرة وواجهها بانها أخفت عنه ان تو قال لها ان اباها كان
نزىل سجون ، فاصفر وجهها ، وحاولت ان تعتذر له بانها خافت ان
تسبى هذه المعلومة الى الولد ، وفرح زهدى بما سمعه ، فمعنى
هذا انها لا تعلم صلة زهدى بوالد تو ، ولو كان تو يعلم لقال هذه
المعلومات لمنيرة .. الا اذا كان ذلك الاحتمال الضئيل بأنه يدبر أمرا
ما زال قائما وأنه يجيد أداء دوره ببراعة حتى على منيرة نفسها ..
وقد اختلطت مشاعر زهدى بين الفرح والشك ، فلم يتمالك نفسه
فى ذلك اليوم وانهال ضربا على هذه المرأة الضخمة ، كما لم يضرب
فى حياته انسانا ، ولكنها تحملت ولم تفتح فمها بكلمة واحدة ..
كانت تقول له وهى تتلقى الضربات .. انه صنع لها جميل العمر
كله .. بتعيين تو فى وظيفة فى النادي .

وفجأة ، عاد زهدى يحدجنى بتلك النظرة الطويلة التى لم أفهم
سرها ثم قال ان ضابطا كبيرا مثله ما كان ليهتم بمصير ابن مجرم خارج
على القانون ، لو ان ذلك المجرم فكر فى مستقبل اولاده ولم يعرضهم

للضياح بمقامراته الشيوعية .. وقال زهدى أنه يحمل كراهية خاصة لهؤلاء الشيوعيين ، لان وجوههم كالحة واغلبهم يستعمل النظارات ، ولانه عندما يتعامل مع المجرمين الاخرين ، يستطيع ان يتبادل معهم الكلام ، أحيانا يقولون له نكتة أو يقول هو لهم نكتة . هذا ممكن مع قاتل أو تاجر مخدرات أو لص أو نشال .. انهم على أية حال بشر .. اما هؤلاء الشيوعيون فالعياذ بالله .. لهم طريقة سمجة فى الحديث ، وأفكارهم غامضة ملتوية ، وينظرون اليك نظرات نعبانية لئيمة وكل همهم هو افساد عقول الشبان ، وباختصار .. هكذا قال زهدى مؤكدا فى نهاية شرحه لكراهيته الخاصة للشيوعيين ، ان اى ولد قصير نحيف .. منكوش الشعر يضع نظارات سميكة على عينيه ويتكلم بعصبية وحدة .. هو شيوعى .. ودليل زهدى على صحة كلامه هو مقالات كتبها الاستاذ العقاد عن هذه النماذج الشيوعية . وعاد يحدثنى بنظراته الطويلة الغريبة ، وكأنه ينتظر منى أن أقول شيئا .

فقلت :

— انا لم اقرأ هذه المقالات .

فلماذا به يسألنى :

— أنت معى .. أم لا .

سألته :

— ماذا تقصد .

قال فى ضيق ونفاد صبر :

— هذه اجابة من يتهرب من الاجابة ، لو كنت ضدهم .. كنت

اجبت بالفم المليان .. أن الشيوعيين ولاد كلب .. اما ان تسألنى ..

ماذا اقصد .. فهى تعنى انك شيوعى .

قلت ضاحكا :

— لن تحاكمنى يا زهدى بك .

قال باسما وقد خفض صوته :

— اسمع .. انا أريد ان أفهم منك حقيقة الامر .

ونسى تماما كل كلامه السابق واحكامه القاطعة عن الشيوعيين

.. واذا به يقول لى وهو يغمر بعينه ..

— اذا كنت شيوعيا .. فافهمنى .. ماهى حكايتها . أريد ان

اناقل مع هذا الكلام عن الاشتراكية والتقدمية يا اخى .

الفصل التاسع

كان من المستحيل أن يدور بينى وبين زهدى بحوان له معنى حول الشيوعية أو الاشتراكية ، أن الرجل لا يريد أن يفهم أو يقتنع بشيء من مطلبه بسيط وواضح . مطلب الرجل الانتهازى ، الذى يرى ، كما يقول ، أن بعض من فى السلطة يتحدثون عن الاشتراكية ، وبعضهم افكاره ماركسية بل كان معتقلا تحت قبضته فى السجون ، فلماذا أصبح لهؤلاء سلطة ونفوذ ، بينما ضاع منه كل شيء ، وأصبح لواء على المعاش .

كان يريد أن يفهم سر اللعبة . وكانت لا تعنيه الافكار والمبادئ فقد حاولت أن أشرح له ، فقاطعتنى فى ضيق ورفض حاسم لاى كلام نظرى ، انه يريد أن يعرف العلاقات الشخصية ، الصلات الخاصة التى أدت بهذا أو ذاك إلى مناصب الوزارة أو مراكز السلطة . وكان يؤمن بأن تعدد الآراء والاتجاهات بين المسؤولين ، له هدف واحد ، هو أن يكون كل واحد منهم رقيقا على الآخر ، يحدا من توغل نفوذه أو تضخم سلطته . فلأن له اتجاه اخوانى فلا بأس من أن تضع فى طريقه فلانا الشيوعى . وهذا الوزير عقليته أمريكية فلا بد أن يكون وكيل وزارته أو الوزير الذى يتولى وزارة أخرى متصلة بأعمال وزارته له صداقات مع الاتحاد السوفييتى . كان زهدى يتصور تشكيل المناصب والمراكز وكأنه طبخة « تورلي » تحتوى على البطاطس والفاصوليا والكوسة والباذنجان وكل ما يخطر أو لا يخطر بالبال ، ليأكل الجميع وينبسط الجميع ، وقال لى مازحا ، أنا قمت ياسيدي بدور الكوسة وانتهى امرى الى ما انتهيت اليه ، فلا بأس من أن أقوم الآن بدور الباذنجان أو الفاصوليا ، وعيشا حاولت أن أفهمه أن لعبة السياسة أخطر من هذا ، وأن القضية ليست فى أن يأكل وينبسط ويتمتع بالنفوذ مئات أو بضعة آلاف يدورون فى تلك المناصب ، بل هى قضية مصالح ملايين غفيرة تسعى للحصول على حقها فى الحياة الكريمة ، لم يفهم أبدا أن الاتجاهات المختلفة والآراء المتعددة المتعارضة تعكس حلولاً مختلفة ، وقناعات متعارضة حول مصير هؤلاء الملايين .

وأوقف زهدى الحوار بيننا ، قائلا لى بصوت جاد ، ان كلامى هذا على وجه التحديد ، هو الذى يؤدى بصاحبه الى السجن ، وانه يحذرني من تردده ، وهو ينصحنى بحكم خبرته الطويلة ، فالذين يقعون فى الكمين وتبتلعهم غياهب السجن ، هم أولئك الذين يتحدثون بهذا الكلام النظرى ، وهم حمقى ، ولا ينصاع الى كلماتهم ألا الشباب الآخرون ، فيحدثون هياجا وفوضى ، ومن هنا يتحتم الإيقاع بهم وضربهم ، كان زهدى يحدثنى بحرارة الصديق ، الخائف على مصرى ، والذى يدعونى الى أن أسلك معه الطريق الصحيح ، طريق توطيد مابيننا من علاقات شخصية ، وأن نساعد بعضنا بعضا مستغلين مالنا من علاقات لندخل فى طبخة التورلى ، او يكون لنا فيها نصيب ، وهكذا تركته فى تلك الليلة وقد اضاع الى شومورى بالخوف من احوال التعذيب والبطش شعورا افدح بالعجز . والذى حدث بعد تلك الليلة انى قضيت فترة طويلة لا استطيع التردد فيها على النادى ، ولا الاتصال بزهدى ، ولم يكن ذلك بسبب قرار اتخذته او سلوك معين اتبعته ، بل كان ذلك أشبه باستسلام لمشاعر غامضة تدفعنى الى تأجيل التردد على النادى مختلفا اعدارا تافهة ، وقضيت تلك الفترة اتردد على قهوة الشطرنج بميدان المشية ، اللعب فيها الشطرنج من الصباح حتى المساء ، مكتفيا بسندوتشات الفول او الفلافل لا افكر فى شيء غير المربعات البيضاء والسوداء ، تتحرك عليها قطع الشطرنج ، وكنت اذا ارهقنى اللعب لا اغادر المقهى ، فاجلس اراقب اللاعبين الآخرين ، لا عمل لى فى الحياة غير تتبع الملوك والوزراء والفرسان والبيادق يتحركون فوق المربعات حتى يصبح احد الخصوم كش ملك مات .

فيثور صخب وضجيج ثم تنتصب القطع من جديد فوق المربعات ويبدأ صراع جديد . ولا أدري كم كان يستغرقنى مثل هذا الادمان ، لولا اصابتي بانفلونزا حادة لزممت معها الفراش ، وهانذا ابدأ نشاطى بعد ايام المرض بكتابة هذه الاوراق . فما الذى وصلت اليه ؟ . ويجب أن اعترف انى اثرت كثيرا من الاسئلة الشجاعة ولكنى لم اكتب حتى الان اجابة شجاعة واحدة ، سألت نفسى هل انا عاجز عن مواجهة اعمال البطش والتعذيب والقتل ، لو كان الامر موتا فحسب لهان بعض الشيء ، ولكنهم يقيمون الحفلات التى يهدرون فيها رجولة الانسان ويتغنون فى تحطيمه وهو مازال حيا . هل هذا هو الذى يخيفنى الى درجة الشلل ؟

سألت نفسي عن قيمة الكاتب الذى يكتب للناس وهو خائف مما قد يواجهه ، هل اقبل نصيحة زهدى ، الذى فهمته تماما بينما عجز هو عن فهمي ، لاداعى للاستسلام للانفعالات ، ولاداعى للتورط فى خيالات رومانتيكية مع منظر البحر وصيادى سمك المياس الذين تبدو مراكبهم فى الافق ..

لقد عجزت عن شرح قضية السياسة لزهدى ، فهل انا افهمها حقا ، ولكنى طوال حياتى وانا أحاول أن أفهم .. والشبيوعية والاشتراكية بينى وبين زهدى ، هو الحوار الوحيد الذى عرفته ، انى اختزن فى ذاكرتى العشرات من المواقف التى دار فيها الحوار بينى وبين الآخرين ومن كل موقف خرجت بفكرة ، ورسب شئ فى أعماقى ، كنت اسير جنباً الى جنب مع ذلك الكاتب الشيوعى « ب » فى غابة صنوبر بالجبال وكان الثلج يغطى الارض ، وقال لى الرجل : — أنا شيوعى ، ولكن عشرة فى المائة فقط من الشيوعيين هم الذين يستحقون الاحترام ، الباقون مازالوا فى حاجة الى تهذيب وثقيف يخلصهم من الجهل ..
وسألت فى دهشة :

— اهلاً وأبك ؟

قال وهو يحذرني من أن اتزحلق واسقط على الثلج :
— عندما تقول اننى اعيش لكل الناس ، وعلى أستعداد لان اهب حياتى من اجلهم ، وتطلب ان يأخذ كل انسان بمقدار عمله ثم بمقدار حاجته .. فلا بد أن تكون قد وصلت الى درجة عالية من التربية والثقافة ، الناس يولدون كالاطفال .. فرائزهم نهمة جشعة .. تمتد ايديهم الى كل شئ تقع عليه عيونهم يريدون اختطافه وتملكه ، ان الاطفال اشد المخلوقات انانية وفردية ، ولذلك كان لابد من تربيتهم وثقيفهم .. وهذه التربية لا يصل اليها حالياً الا القليلون .
كان يتحدث بانفعال وحماس .. فنسى فى غمار حديثه ان يحذرني فاذا بى اتزحلق .. واجذ قدتى تنزلقان واطير فى الهواء لاسقط على ظهري فوق الجليد .

وصاح الرجل فزعاً وهو يمد يده الى .

— هل اصبت ؟

قلت وانا انهض واحرك ساقى :

— حمد الله .. لم اصب ..

قال باسم :

— أن الله في عقلك .. وليس هناك يتسلى بمراقبتك في السماء .. أن مستشفيات تشيكوسلوفاكيا جميلة ، ولكنى لا أريدك أن تقضى أيامك هنا في المستشفى ..

وأذكر ذلك الشاعر في وسط آسيا ، ونحن نجلس في مزرعة جماعية بجوار سمرقند ، وقد دعاني إلى الشاي ، فإذا به يتكلم بلغة الشعر . والفودكا والبراندى ، هما عنده الشاي ، وقال لى :

— عندما قامت الثورة .. ظن الناس أن كل شيء أصبح ملكا لهم ، فانقضوا على كل شيء ينهونه .. حتى أخشاب ومقاعد عسرات القطارات فكوها وحملوها إلى بيوتهم .. سرقوا المخازن .. لم يسلم شيء وقع تحت أيديهم .. كان الفارق هائلا بين تعاليم ثورة وغرائز ناس ..

ثم صمنت برهة وقال :

— اضطررنا أن نبحث عن حراس مسلمين متدينين لحراسة المخازن .. أن المبادئ الجديدة لم تتأكد بعد في النفوس ، وإذا كانت غير واضحة تماما في العقل فلا شيء يقف حاجلا بين الإنسان والاندفاع وراء غرائزه وشهواته الخاصة ، نعم كان الحراس المسلمون يساهمون في حراسة ثروات مجتمع اشتراكي .. لأن تعاليم الدين تمنعهم من ارتكاب السرقة .

وهناك في مقهى امام محطة مترو مونبارناس في باريس ، جلس الصحفي الاشتراكي الفرنسى ، بحسبه الضخم يلوك بين شفتيه سيجارة جلواز ، متحدثا بعصبية :

— يقولون أن التأميم استبداد . وأن الاشتراكية جبريمة .. ويخيفوننا بمذابيح ستالين التى سفكت دماء عشرات الألوف ، ولكن المبدأ شيء والمذابيح شيء آخر .

ونزع الرجل الجلوازا من فمه ، وسحقها في منفضة أمامه ومنفى يقول :

— هنا في باريس شاهدنا مذابح الثورة الفرنسية ، كانت الجليوتين هي « الفيديت » النجمة التى تسهر باريس حولها ، تتسلى برؤية السكين تفصل الرقاب ، والرقاب تسقط فى السلال .. كان بينها رقاب بريئة ولاشك ، ذبحت باسم الديمقراطية ، والحرية والليبرالية .. أرهاب روبسبير . صرخة مدام رولاند « ايتها الحرية كم من الجرائم ارتكبت باسمك » يومها كان هناك من يقول فى إنجلترا والمانيا والنمسا ، حيث يعيش النبلاء : هذا هو ما جلبته

الحرية ، هذه هى النتيجة الحتمية للديمقراطية ، لقد تسلم الاوغاد مقاليد الحكم ، اصبح الرعاع وحثالة البشر هم السادة . نفس الكلمات التى نسمعها اليوم عن الاشتراكية او الشيوعية ، انى ياسيدى لست شيوعيا ، لا احمل بطاقة الحزب ، ولكنى ارفض أن يقرر احد بعقلى ، انى ارفض المذابح والقسوة والبطش والاعتقالات واهسدار آدمية البشر ، ولكن ليس بسبب هذا الرفض ، اختار الغاء عقلى ، فأقول لو كنت معاصرا لآبام روبسبير ، أنى مع عودة النبلاء ورجوع حكم آل بوربون .. او أقول اليوم بعودة المليونيرات والمحتكرين وقياصرة الاسواق والبورصة .

ثم ذلك الامر يكى عالم الكيمياء ، فى المقعد بجوارى فى الطائرة التى نقلنا من سانت لويس الى شيكاغو .
- سيدى .. اننا جميعا كعلماء نفكر اليوم بالمنهج المادى الجدلى .. لانه حقيقة علمية لاجدال فيها . ولكن الخلاف بينى وبين الماركسيين مازال قائما .

واساله فى فضول :

- كيف ؟

فيجب :

- نحن نطبق المنهج .. ونرفض النتائج الاجتماعية .. المنهج أداة للمعرفة . ولكنه ليس هدفا فى حد ذاته ، النتائج مازالت غير محكومة بمنطق تستطيع ان تسيطر عليه .

واستبعد ذلك الحوار الهادى فى حديقة شتوية فى موسسكو ، والرجل المفكر البدين يبدو وكأنه على وشك النوم .. ومع ذلك فافكاره حادة عنيفة .. لا اكاد اصدق انها تصدر عن هذا الجسد المترهل الكسول . كان الرجل يقول وكأنه يتحدث وهو يغالب النعاس :

- لقد عرفت معتقلات ستالين ، كنت احذ نزلاتها .. لانى رفضت السياسة الجامدة .. انها ليست علمية .. مثالا نستطيع ان نقول علميا أن مجتمعا مثل مجتمعكم المصرى قادر على أن يكون شيوعيا . الان .. ان القرارات والأوامر لا تحقق هذا . انها طيش وهراء ان تحقيق الاشتراكية اولا يحتاج الى توافر ظروف معينة .. منها ان تكون الطبقة العاملة قادرة على ان تحكم .. وان تدبر عمليات الانتاج . هذا الظرف لم يتعمق تاريخيا بعد عندكم . ان البسلاد المنامية فى حاجة الى مرحلة أولى هى مرحلة التصنيع .. والمصانع

تهيء الظروف لخلق الكوادر العمالية الناضجة .. ثم ارتفع صوته
كمن احس بأنه يوشك ان ينام فعلا :

— الصناعة بأى اموال .. حتى لو كانت اموال المرتشين الذين
يسرقون الشعب .. كل مصنع يقام بتلك الاموال سوف يعود فى يوم
أقرب مما تتصور الى أصحابه الحقيقيين العمال والفلاحين .
وذلك الاستاذ الجامعى بجامعة القاهرة الذى يحرص على اداء
فرض الصلاة فى موعده وهو يقول بحرارة اليقين :

— مالها الشيوعية .. انها كافكار شيء عظيم .. النقطة الوحيدة
التى اختلف فيها مع ماركس .. هى موقفه من الدين .
ثم يقول بلهجته الواثقة :

— لو كان ماركس عرف الاسلام . لما ناصب الدين هذا العداء ..
انه انشغل بسلطة الكنيسة واقطاعها .. فتوهم انها الدين . وعداذلك
فما الذى تعترض عليه عندما تنادى بحصول الانسان على ما يحتاجه
او بمقدار عمله .. امر عظيم وعادل .. انا شخصا لست عاملا ولست
فلاحا ولم اتصور يوما ما من الجوع .. والامر بالنسبة لى هو قضية
ضمير . وانا افهم ان كرامتى لا تتحقق الا بكرامة الاخرين . ان سلامة
الانسان النفسية والجسدية وقدرته على تحصيل العلم الصحيح
والتمتع الحقيقى بالحياة لن يتم وهو يعيش وسط الجهل والشعوذة
والسلب والنهب وسوق الفرائز المنصوبة ، لا توجد بروج مشيدة
يستطيع ان يتخفى داخلها الانسان مما حوله مهما كان قدره ومهما
كانت منزلته ، ان حريق الجهل يلاحقه ان الجاهل مظلوم وهو فى نفس
الوقت يحرق ما حوله ، والمريض مظلوم ، ولكنه شرير . انه جحيم
يدمر ويهلك كل ما تمسه يده . ان الفقر يدعو الناس لارتكاب
أبشع الجرائم . والذين يعيشون بجوار هؤلاء يتمتعون بالمال والصحة
والعلم محاصرون ، يعيشون بما يتوهمون تملكه فى زريبة خنازير ، ان
طعامهم الشهى وملابسهم الفاخرة وسياراتهم الانيقة وبيوتهم الوثيرة
لا تحميهم ، انهم يدفعون الثمن ، بقتل احساساتهم بالتمسك بالافكار
القلدة والمشاعر الحيوانية والعواطف الشاذة المتبدلة .
— ولكنهم لا يدركون ان احساسهم ميت ، ويتمتعون بمشاعرهم

وثرائهم ١٠

فصاح غاضبا :

— ليكون . لانه لو كان اعمى البصرة يدرك مقدار تعاسته الهائلة
ووضاعة حياته ، لكان فعل شيئا كذلك الذى يقدم عليه الزاهد المتصوف .

او ذلك الذى قبله تولستوى عندما واجه الفقر والجهل من حوله . فمضى يتخلص من املاكه فزعا يريد ان يستنقذ نفسه .. ان الافراد الاغنياء الذين يعيشون وسط غالبية من الفقراء قد يظنون انهم اقوى الاقوياء واعظم العظماء . ولكن جهلهم مركب وانحطاطهم مركب . لانهم لا يدركون حقيقة امرهم .. انهم عاجزون تماما عن الفرحة الحقيقية . لا يشعرون بطمأنينة ابدا . لا يرون جمالا صادقا ابدا . ان حثالة البشر من الفقراء ، ليسوا احط منهم الا عندما يصبحون اغنياء على شاكلتهم .. ان المرضى العاجزين عن مقاومة افتك الامراض خبثا ، تسوء حالهم اكثر لو انهم تمتعوا بعضلات مفتولة قوية على حساب عقولهم الفارغة .. انت تقول عن المريض انه مصاب وقد يشفى . اما صاحب العضلات المفتولة والعقل الفارغ فلا وصف له الا انه غبي حمار . الفقراء المظلومون ما زال عندهم امل ان يحققوا العدل ، وان يستنقذوا انفسهم ، يكفى ان يرتفع راس واحد منهم فوق مستوى الهوة التى سقط فيها ، ليفكر فى العدل ، ويحارب من اجله . اما الاغنياء الظالمون ، فما من امل لديهم ، لقد ضاعت نفوسهم واحترقت .

هل استرسل مع كل هذه المواقف ؟ ما الذى ابغيه ؟ هل اريد ان اقنع نفسى بانى افهم بعض مايجب ان يفهمه الانسان عن الظلم والعدل . ولكن ما الفائدة . ان المطلوب ليس الافكار . ان الانسكار ليست كل شئ وقد لا تكون لها قيمة على الاطلاق بلا تصرف وعمل عندما ترتفع ردوس المظلومين ولو بمقدار بوصة او اقل فوق حماسة الوحل الفارقين فيه مواجهين من خلال تجارب لا حصر لها . مهمة تحقيق عدالة ترتبط بواقعهم وتعتمد على ماحققة العقل الانسانى فى هذه الدنيا من انجازات . عندئذ سوف تكون كلمات مثل شيوعية او اشتراكية او عدالة اجتماعية . ليست مجرد كلمات او شعارات للمتاجرة . لن تكون كما يتصورها زهدى الوأنا من الكوسة والفاصوليا والباذنجان فى طبخة تورلى . لن تكون مظاهر ولا اقنعة . لن تكون شيئا يخاف الناس منه ، او يتباهى الناس به ، يتنكر البعض له ويتاجر بشيئتمته او يتاجر بمدحه . ترى هل من اجل هذا كان مصرع والد تو ؟ لابد ان هذا المعنى الكبير ، هو الذى ساعده على ان يموت متحديا رافع الرأس .

« انتهت المسودة »

بعد كتابة تلك الاوراق . هلت من جديد الى مقهى الشطرنج .

ولاحظت أن لعبى قد ساء الى درجة كبيرة ، فكنت أسهو ويشرد تفكيرى
فى لاشئ . فأرتكب أخطاء . وألقى الهزيمة تلو الهزيمة . كنت
عصبيا ، وكنت أشعر بأنى أنتظر شيئا مالا أعرف كنهه ، وقد تعودت
من قبل على نوع آخر من الانتظار ، كان غالبا مايسبق شروعى فى كتابة
رواية اذ أعانى من احساس مريع بالعدم ، بالخواء المطلق . كانى
لا شئ ، صمت رهيب داخلى ومن حولى ، ودمدمة مكبوتة لا تريد
أن تفصح عن طبيعتها تنتابنى بين وقت وآخر . كنت أسمى هذه
الحالة ، مخاض الرواية ، ولكن انتظاري الان يختلف ، فأنا خائف
وعصبى ، ولا أدري على وجه التحديد ، مصدر الخطر الذى يكاد
يحدق بى . وزاد من مخاوفى ، أنى بعد فراغى من كتابة المسودة ،
شعرت بالعجز عن كتابة أى عمل أدبى . هكذا قلت لنفسى ، وكانى
علمت بنبا نقله اليها بلا تبرير أو تفسير ، متجاهلا أنى صاحب القرار
فى كتابة ما أريد أن أكتبه . وخطر لى أن مرضى بالانفلونزا كان نتيجة
خوف أرهقنى ، وجعلنى عرضة للسقوط فى المرض ، وخطر لى أن
ترددى على مقهى الشطرنج ، هو أيضا خوف من مواجهة حقائق
الحياة القاسية ، كما كشفها لى زهدى . وكما دونتها فى مسودتى ،
وأحيانا كنت أهمس لنفسى ، هل انا هارب من الهول الذى يعبدونه
فى السجون للذين يتجراون بالافصاح عن مبدأ أو رأى . ثم شعرت
ذات مرة ، وأنا جالس احتسى الينسون أرقب مباراة شطرنج ، أن
ما أعانى منه . أفدح من تلك الضربات والركلات والهراوات التى قد
تسقط على رأسى وجسدى للحظات ، ثم أفيق منها بالموت . لم يعد
الشطرنج ، ولا البريدج فى النادي ، ولا سهرات فى البار ، ولا أى
شئ آخر ، يعيد الى حواسى مذاق الحياة . نعم ان هذا الانتظار الفاجع
ليس أنتظارا فنيا يسبق كتابة رواية . انه انتظار لموقف اتخذته من
حياتى كلها . وان كنت لا أدري كيف ، ولا ماذا أختار . سحقا لتلك
الاوراق التى كتبتها بمظنة أنها ستساعدنى على الشفاء . انها كانت
نموا لسرطان ، لفوضى فى نمو الافكار ، لاختلال فى الشاعر يتضخم
يوما بعد يوم ، ولا أدري كيف أعالجه . ولا ابن . حتى كان صباح
ذلك اليوم .

كنت أعبى الميدان فى طريقى الى القهوة ، يوم آخر مثل بقية
الايام ، عندما رأيته أمامى . تو . هاهو يسير هناك ، مندفعاً فى
طريقه ، قادمًا فى الاتجاه المضاد ، وخفق قلبى ، وتهلل وجهى ،

ووجهت اليه عيني ، في انتظار أن تلتقي العيون . كان يحمل ربطة كبيرة . يبدو أن داخلها كتب أو أوراقا . كان يقترب مني وأنا اقترب منه . دون أن ينظر في اتجاهي ، وأصبحت واثقا انه سيعبرني دون أن يتنبه الى وجودي بجواره ، بل خشيت أن يراني فيكتفي بتحيتي براسه ، ويمضي في سبيله . . ماكنت لأرضي بأن يحدث هذا ، لاي سبب من الاسباب . وهتفت بأعلى صوتي استوقفه :

- تو . . الى أين انت ذاهب ؟

وأقبلت عليه بوحشة كبيرة ، كنت أريد أن أعانقه ، لولا أن وقفته وخطواته لم تسمح لي بالعناق . وسألته في حماس لم أعرفه منذ وقت طويل :

- الى أين ؟

قال :

- الى النادي . .

سألته :

- وما هذا الذي تحمله ؟

- قال دفاتر البريدج . .

وأشار بيده في اتجاه أحد الشوارع الضيقة الى الميدان وقال :

- كنت هناك في المطبعة اسلمها . .

قلت على الفور :

- أنا أيضا ذاهب معك الى النادي . .

هيا أوصيك . .

نسيت في لحظة واحدة الشطرنج ، وكل شيء ، ولم أبال بالدهشة التي ارتسمت في عيني تو وهو يسألني مستترجا :

- هل انت ذاهب الى النادي حقا ؟

قلت بلهفة :

- طبعاً . .

قال في عجب :

- ولكنك تفويت عنا لاسباع طويلة . . أكثر من شهرين . .

قلت له وأنا صادق تماما فيما أقول :

- فعلاً . . ولكن النادي وحشني . .

كان كلامي ساذجا ، وتفسيرى لوقفي المفاجيء لا معنى له ، فالذي يسيطر على هو شعور قوي بالآ يقلت تو مني .

نظر الى نو فى ارتباك ، وصار الى جانبى فى طريقنا الى موقف
السيارات ، وما كاد يرى سيارتى ، حتى ابتسم وقال :
- اذكر يوم السباق ..
قلت :
- نعم اذكره ..
واشرت له :
- اركب .. فلن اسابقك هذه المرة ..
وتحركت السيارة ببطء ..

الفصل العاشر

وسع تو أوراق البريدج عند قدميه ، وأطل من نافذة السيارة على يمينه ، معلنا بطريقة غير مباشرة ، أنه لا يتوقع أن يدور بيننا حديث ، وكنت بدورى مشغولا بهواجسى التى تحدثنى بأن هذا اللقاء بينى وبين تو كان لابد أن يتم ، فهو ليس لقاء صدفة ، ولو كان هذا اللقاء قد تأخر ، لاكتشفت أهميته ، ولسمعت ألى تدبيره ، وكنت وانقا أنى منطلق مع تو ، ليس فى توصيله الى النادى ، بل الى شيء أعمق وأخطر ، ولكنى لا أهرى ما هو هذا الشيء ، ولا أستطيع أن أنبأ به . ولما مضت فترة طويلة من الصمت ، وجدتنى أقول له متخلصا من هواجسى :

— ها أنت ترى انى اقود برزانة وتؤدة .. •
قال ياسما :

— فى الحقيقة .. كنت أسأل نفسى لماذا لا تسرع كعادتك ؟
قلت فى مرح :

— حتى لا تذهب مرة أخرى الى قسم الشرطة .
فاحمر وجهه وسكت ، ورفض أن يعلق بشيء .
فقلت فى الحاح محتفظا بمرحى :

— هل تريد أن أهيه لك فرصة للاحتكاك بهم ؟

اجاب فى خجل :

— ولماذا المشاكل ؟

وعاد الى تشاغله بالنظر من النافذة على يمينه . ومضى بعض الوقت حتى اقتربنا من النادى ، فسارعت أسأله :

— هل أنت مرتاح لمملك فى النادى ؟

اجاب :

— أبدا .. •

- ولماذا .. هل لديك مشاكل ؟

قال وفي صوته حزن :

- أبدا .

واوقفت السيارة ، وهبطنا ، ومضى خلفى الى الباب ، وماكدنا نعبره ، حتى استأذن واتخذ طريقا آخر الى حجرات النادى ، وتركنى وحدى ، لا أدرى ماذا افعل بالمقاعد والمناضد الخالية من الاعضاء . وكان من المستحيل ان اترجع ، واغادر المكان ، فجلست اراقب بعض الخدم يقومون بأعمال النظافة ، ويثرثرون بأصوات مالية حادة ، كانوا قد صمتوا للحظات عند دخولى ، وبدأت على وجوههم الدهشة ، ثم عادوا الى عملهم وثرثرتهم . هل انهض وافتش فى الحجرات باحثا عن تو ؟ .. واقول له : انى أريد ان أحدثك . ولكن فى أى أمر أحدثه ، وما الذى أريده منه على وجه التحديد ؟ .. ان من أصعب المواقف التى اواجهها ، تلك التى اتورط فيها من خلال انفعالات المشاعر . قد أكون سخيفا الى أقصى حد ، قد أكون ساذجا بله الى درجة لا تطاق . ومع ذلك فهواجسى تنبئنى أن تورطى مع تو ، إما كان نوع هذا التورط سوف يؤدى بى الى شيء هام ، وأنه لا معنى للحفاظ الاجتماعى أمام هذه المشاعر الملحة التى تنتابنى . وقبل أن اقدم على أى تصرف ، دخل تو القاعة التى اجلس فيها ، ورأى ، وابتسمت له ، فhez رأسه ، ومضى يخاطب الخدم ، وأنا لا أحول عينى عنه ، ثم التفت الى ، ورأيتة قادما نحوى . وارتبكت . جاء يسألنى اذا ماكنت أريد فنجان قهوة . قلت له انى أكون أسعد مخلوق فى الدنيا لو حقق لى هذه الامنية ، لولا خجلى من انشغالهم بأعمال النظافة وان الوقت يبدو غير مناسب لتلبية مثل هذا الطلب . فصاح تو فى أحد الخدم وطلب منه اعداد القهوة . فهتفت به :

- وماذا تشرب انت ؟

ولم أترك له فرصة للاعتذار . وهكذا جلس الى جوارى فى انتظار قهوته السكر زيادة ، وقهوتى السادة . ودفعنى ارتبساكى الى محاولة تبرير حضورى المبكر ، قلت له انى مهموم ولدى مشاكل فقال ببراءة مضحكة انه لا يتصور أن رجلا مثلى لديه مشاكل من النوع الذى يثير الهموم . فقلت له برزانة اكثر اضحاكا انه عندما تتقدم به السن سوف يكشف أن هموم الكبار اشد بكثير من هموم الشباب . قال بسرعة وحسم :

- الا انا ؟

قلت :

— الدنيا مازالت أمامك ..

قال :

— ولكن ليست هذه حياة ..

قلت :

— هذا يتوقف عليك .. يجب أن تنتهى أولا من دراستك فى

الجامعة ..

قال وكأنه يتخلص من كلمات لا تعجبه :

— طبعاً .. طبعاً ..

انى أنتظر انتظار الصائد الذى قد يجلس طوال النهار أو الليل ،
فى انتظار سمكة تلتقط الطعم . فكنت أتعهد الذهاب الى النشادر
مبكرا بين يوم وآخر . حتى أصبح ترددى فى ذلك الوقت أمرا لا يثير
الدهشة ، وكان تو يرانى ، وقد يشرب معى فنجان قهوة ، ويشترى
معى بأخبار الاعضاء ، وأنا أستمع إليه فى ملل وضيق . لانى عاجز
عن توجيه الحديث الى ما أريده ، والادهى من ذلك انى لا أعرف ما هذا
الذى أريده . حتى كان صباح اليوم الذى جاءنى فيه تو فى حالة
نفسية مضطربة ، كانت فى عينيه نظرة قريبة ، وكان ممسكا فى يده
دفتر البريد . وقد اكتشفت أنه جاء بهذا الدفتر فى يده عن عمد ،
وانه يريد أن يسجل عليه شرحا لما يريد أن يتحدث عنه .
قال لى :

— أريد أن استشيرك فى امر خاص .. هل لديك مانع .. أرجو

الا اضايقك .

خفق قلبى ، وتوقدت ذهنى ، وأصبحت قدرتى على الملاحظة
أكثر حدة ، شعرت أن قوة ابصارى قد تضاعفت ، ولم أقو على الكلام
من شدة الانفعال ، فهززت رأسى مرحبا . ويبدو أن هذا الترحيب
الصامت شجعه ، أكثر من أية كلمة أنطق بها .

فقال ببطء وبمحاولة ناجحة تماما فى السيطرة على لسانه حتى

لا يتلعثم :

— لاحظت طبعاً انى اتلعثم فى الكلام .. وأن من يسمعى لا يفهم

كل ما أقوله .. لانى اذا ارتبكت تحدثت بسرعة غير عادية واختلطت
الكلمات فى فمى .. وهذا يضايق من يسمعى .

هززت رأسى موافقا ، ولم أنطق بكلمة .

— فمضى يقول وقد زاد رضا بصمتى :

— بالامس كان هنا الدكتور الحمزاوى الطبيب النفسى .. كان يلعب البريدج .. وحدث أن وقفت اتحدث معه . فقال لى فجأة :
أن هذه اللعنة قد نشأت ولاشك من صدمات شديدة وأنا صغير .
فتحت أذنى أكثر ، واحتفظت بوجه محايد . وسمعتة يقول :
— فى الحقيقة .. أنا حياتى صعبة ، وهذه اللعنة لن تعالج إلا بحل مشاكلى .

أقاطعه صارخا .. كيف يستطيع هو أو مليون مثله حل مشكلة فقدان الاب والتيتم على هذا النحو الذى حدث له .. ومنعت نفسى بصعوبة من اطلاق الصرخة . كان فضولى اقوى من صرختى .. واذا به يضع دفتر البريدج على المنضدة أمامنا . ويخرج قلم حبر جاف من جيب بنطلونه . كانت صفحة تسجيل النتائج مقسمة الى قسمين قسم مكتوب على رأسه « نحن » وقسم مكتوب على رأسه « هم » .. وكتب تو تحت « نحن » شارحا :

— هنا حياتى .. والنتيجة صفر ..

ثم كتب تحت « هم » :

— هنا الموت .. والنتيجة « جراند سلام » .

وهى أعلى نتيجة يصل إليها فريق فى مباريات البريدج .
والتفت الى وهو يشطب على كلمة « حياتى » سائلا :

— لماذا أعيش ؟ .. الا اذا كنا نولد لنموت ..

وهنا بدا واضحا أنه يريد أن يسمعنى .

كانت نظراته تدعونى الى الكلام .

قلت :

— هذا سؤال صعب ياتو .

سألنى فى قلق :

— اليست لديك اجابة مقنعة ؟

قلت :

— أنا لى رابى طبعاً ..

فسألنى فى لهفة اشبه بالتحدى :

— ماهو ؟

قلت :

— كنت اتحدثاً ذات مرة مع الجنرال .. فى هذا الموضوع .. وبلغت ريقى .. وقد فوجئت بقوى مجهولة تكشف عن نفسها

فجأة ، قوى غريبة شرسة لا أدري من أين جاءت ، وماهى طبيعتها .
تحاول أن تفرض نفسها على الحديث . وتريد منى أن أذكر اسم
زهدى .. حتى لو استخدمت ذلك اللقب غير المباشر « الجنرال » .

واكملت ومخاوف تتجمع فى نفسى .. مخاوف من نفسى ..
— « كنا نتحدث عن ابنه حسن .. الذى هاجر وترك كل شئ
.. ان الجنرال غنى كما تعرف ولديه حديقة تدر عليه دخلا سنويا
محترما .. قلت له على ما اذكر : انى أعتقد ان الحياة واحدة ..
كل البشر حياتهم واحدة ، ولهم روح واحدة .. ولكن لهم أجساد
متعددة وأشكال مختلفة . هى نفوسهم التى تضم نصيبها من الحياة
الكبيرة ..

ورفعت صوتى محاولا أن أشرح له :
— ان الحياة تجرى فى أجسادنا كما يجرى الماء فى الاوانى
المستطرفة .. أو كما تجرى المياه فى الدنيا .. مياه البحر فى
المحيطات .. ومياه الامطار تصب فى كل مكان .. قد يختلف الاناء
.. بحيرة أو ترعة أو بحرا أو نهرا .. وقد يختلف الطعم حلوا أو
مالحا ، ولكنها نفس المياه .

وفجأة دفعتنى تلك القوى الغريبة فى داخلى الى أن أقول :
— قد تكون أنت على صورة أبيك .. نفس الشكل مع تحويل
بسيط .. ولكن حياتك هى نفس حياة والدك .. وهى أيضا ..
أضفت بصعوبة :

— هى نفس حياة زهدى ..
هذه المرة نطقت باسم زهدى سافرا .. كان تو يحدق فى وجهى
صامتا ، وبدأ متشككا فى أهمية ما أقوله ، ولكنه فى نفس الوقت بدأ
وكانه يريد أن يسمع المزيد . كان فى تلك اللحظة والقلم فى يده ، أشبه
بمن يمتحننى . لا بمن يستشيرنى .

رددت من جديد :
— ان حياتك هى على نحو ما حياة أبيك .
وسكت وقد أرهقنى هذا الخضوع المطلق لتلك الاصوات التى
تخرج منى رغما عنى .
ورأيت بهز رأسه ويقول :
— لا أظن ..

قلت وقد فقدت تماما سيطرتى على نفسى :

- لقد كنت أعرفه ..
نظر الى في غير فهم .. وكنت غير مصدق لنفسى ، فلما عرفت
أباه يوما ما ، ولكن هانذا أوصل كلامى :
— لقد عرفت الظروف التى عاش فيها ..
وتهدج صوتى مكملًا :
— وأيضًا أعرف كيف مات .. ؛
وهتفت منفعلاً :
— كان رجلاً عظيماً ..
أوشك أن يقفز هارباً ، أو هكذا خيل إلى ، ولعللى أنا الذى كنت
أريد أن أهرب من نفسى . كانت رأسه تتلقت بسرعة عصبية فى كل
اتجاه ، لا بحثاً عن شيء ، ولا خوفاً من شيء .. ولكنه كان كالحاصر
برؤى قاسية ..
وسمعتة يقول وأنا أنظر بعيداً لا أريد أن أواجه عينيه :
— وما هى عظمتة .. وقد تركنى على هذه الحال ..
قالها بسرعة ولعنة ، مع كلمات كثيرة لم أثبتها ..
قلت :
— يكفى أنه مات من أجل مبدء يؤمن بأنه يسعد البشر .
قال وهو ينقر بالقلم بقوة على دفتر البريدج :
— ومالى أنا وكلّ العالم .. هل ترانى سعيداً ؟
أجبت بحدة :
— أنت تتحدث بلغة الجنرال ..
قال تو :
— عنده حق ..
قلت ساخراً وأنا أواجهه متغلباً على مخاوفى :
— لا تكن جاهلاً مثله ..
قال :
— وما الذى فعله والذى بموته ؟
قلت :
— ترك من بعده معنى .
قاطعنى :
— أى معنى .. هل هناك شيء أكلته أو شربته ؟ ..
قلت :
— على الأقل تعلمته ..

صاح :

— متى .. أنا لم أتعلم منه شيئا على الإطلاق .. كل أوراقه
أخذوها .. كل صورته .. لا توجد له صورة واحدة فى بيتنا . لا كبيرة
ولا صغيرة .. لا شيءبقى .. كانوا يهاجمون البيت .. فيمزقون
المراتب وينبشون القطن .. ويحطمون المقاعد . ويتحول بيتنا الى
انقاض .. هل يرضى أب أن يعرض أولاده الى هذا ؟

قلت :

— هذا أهون مما يتعرضون له فى انسانيتهم اذا استسلموا ..

صاح :

— ما الذى تريده .. ان أموت مثله فى السجن ؟

قلت :

— لا .. ليس هذا ما أريده ..

فقاطعنى وهو يتذكر :

— لقد مررت على جميع دور الصحف والمجلات أطلب مجموعاتهم
القديمة التى صدرت أيام موته .. كنت أريد أن أقرأ ما كتبوه عنه
.. لم أجد شيئا على الإطلاق .. لم أصدق .. حتى أنى جئنت ،
ذهبت الى دار الكتب ، وأعدت طلب نفس الصحف والمجلات ..
الاهرام ، الاخبار ، الجمهورية ، روزاليوسف ، آخر ساعة ، الصور
.. كان تلك النسخ التى تحتفظ بها دار الكتب سيكون فيها ما أريد
وطبعاً .. كانت هى هى .. ولم أجد شيئا .. حتى أنى شتمت الموظف
هناك .

قاطعته :

— مثل رجال الشرطة الدين تتشاجر معهم ..

قال فى انفعال شديد وبسرعة يصعب ملاحظتها :

— نعم .. أنا لا أحتملهم .. لن أنسى هجماتهم علينا .. وكتبى
الممزقة .. حتى حقيبة المدرسة سرقوها .. هل تصدق ؟ أنهم كانوا
يفتشون الملابس الداخلية لأمى . قمصان النوم والكيلوات .. هل
تصدق .. فما المعنى الذى تقول انه تركه بموته لقد خرب بيتنا .

قلت :

— أكد .. بموته ان فى الحياة أشياء تستحق أن نموت من

اجلها .

واختطفت دفتر البريدج من امامه واختطفت القلم من يده ..
وقلت مشيراً الى ماكتب : هنا تكتب أنت ان الحياة تساوى صفر ..

وأن الموت يساوى كل شيء .. وهذا خطأ .. الحياة تساوى كل شيء
حتى لو دفعت الموت ثمنها لها .. لان الموت ليس عقبة أمام الحياة .
قال وكأنه تلميذ يناقش تلميذا آخر فى مسألة حساب .

— معنى هذا أن الحياة هى الموت ..
قلت :

— نعم .. بمعنى أنك كلما شعرت بالحياة أكثر ، كان تعرضك
للموت أكثر . ذروة الحياة ، هى الحدود الفاصلة بينها وبين الموت
.. وكما قلت لك — الذى يموت هو بعض أجسادنا .. هو بعض
أشكالنا .. بعض نفوسنا .. أما الحياة فباقية فى ملايين الملايين من
البشر الاحياء الآن . أو الذين سيولدون غدا والى ماشاء الله .

سكت برهة ثم واجهنى بسؤال بسيط حاسم :
— وماذا أفعل ؟

هتفت :

— حاول أن تفهم ..
قال :

— أو انتحر ..

قلت فى هدوء متعمد :

— هذا أمر لا قيمة له ..

وهنا هجم على تو بعض الاعضاء ، ينادونه أن يأتى لهم بأوراق
اللعب ، فذهب اليهم ، وانتظرته ، ولكنى فوجئت به يجلس ويشاركهم
لعب البريدج .

كنت مرهقا .. ولم أعد أحتمل المكان . وكنت قد اعتسدت
الانصراف بمجرد حضور زبائن الصباح . وكانت صلتى قد انقطعت
تماما بمعارفى فى النادي الذين يأتون عادة فى المساء . حتى زهدى
كنت لا أسأل عنه ، ولا أهتم بأخباره . وكان تو يقول لى أحيانا أنه
سأل عنى ، وأنه دهش عندما علم انى لا احضر الى النادي الا فى
الصباح الباكر . وابلغنى أكثر من مرة أن زهدى يطلب ان يرانى .
والان أشعر بان تهربى منه ، كان بسبب تلك القوى التى تنشط فى
عقلى ولا أستطيع أن أسيطر عليها .. انها تقاوم بخطة مدبرة ، أن
ألتقى بزهدى . وهى التى دفعتنى الى اتهامه بالخجل أمام تو .. ومن
يدرى فقد تطلب منى أشياء أخرى ، أكاد أشعر أنها ستدفعنى دفعا
الى الايقاع بين زهدى وتو . هل أنا شرير الى هذا الحد .. أأكون
قد جننت .

خرجت من النادي ، وسرت فى الشوارع هائما .. اتفرج على
الفترينات فلا ارى غير زهدى وتو ووالده المقتول .. وجلست فى
محل حلوى بشارع صلاح سالم ، واكلت قطعتين من الجاتوه بشهية
وخطر لى أن اذهب الى مقهى الشطرنج ، ولكنى لم أجِد الفسكرة
مستساغة ، وفضلت أن أقضى الوقت فى مراقبة زبائن المكان ، أغلبهم
من العشاق الذين يجمعهم عشق برىء ، خطيبة تضع يدها على
المائدة لتلامسها يد خطيبها ، والنظرات بينهما حاملة ولكنها مرهفة ،
وعلى الموائد الاخرى بنات السوق . لعلهن تحت امرة منيرة بيجو ،
يتفاهمن مع الزبائن والجرسونات ، وينظرن حولهن ، وكان المحل
هو بيتهن الخاص . وشربت القهوة باللبن ، وشربت كازوزة ، واخيرا
قمت ، أتسكع من جديد ، حتى وقفت امام باب سينما من دور
الدرجة الثانية او الثالثة ، تعرض فيلما من أفلام الكرايه . قتل
ووحشية ودماء .. وانتابتنى رغبة ملحة أن ادخل الفيلم فى حفلة
بعد الظهر . وجلست فى الظلام بين شباب أغلبهم من عمال الجراجات
والميناء ، اشاهد بالالوان الاجساد تمزق بضربات اليد ، والعيون
تفقا بالاصابع التى تخترقها ، والدماء تنبثق من الافواه ، والصيحات
الوحشية تزار بين القتلة والمتصارعين . وخرجت وقد ذهب النهار ،
وجاء الليل ومعه اضاء الكهراء ، كان ارهاقى يدفئنى الى العودة
الى البيت ، واكتشفت أنى نسيت أين تركت سيارتى ، فذهبت
ابحث عنها حائرا ، حتى وجدتها كما تركتها فى الصباح بالقرب من
النادى ، ووقفت برهة مترددا ، افكر فى الصعود الى النادى ، أو
فى الحقيقة الصعود الى « تو » .. ولكن ما الذى أريده منه بالضبط
.. وهنا سمعت تلك الهواجس المخيفة تدق بعنف فى اعماقى معلنة
فى سفور عن هدفها ، أنت تريد أن تعلم تو من الذى قتل والده ؟ ..
أنت تريد من تو أن ينتقم لآبيه ، أنت تريد من تو أن يقتل اللواء
زهدى .

ان أى واحد منا يكون عرضة لاغرب وابشع الهواجس ، والطفل
الذى يغار من آبيه قد يفكر فى قتله كما يقول فرويد ، ولكنه
لا يفعلها .. والولد قد تنتابه خواطر جنسية نحو أمه .. ولكنه
ردع نفسه ، ان أى شيء ، أى خاطر من أى نوع ، قد يخطر بالبال ،
وقد يشغل العقل ، الزوجة الشريفة قد تفكر فى الخيانة . للحظة ،
ثم تنتبه الى فساد خاطر وتطرده . كل خاطر محتمل ، ولكن ليس
كل تصرف بمعقول .

كنت أقود سيارتي هاربا من النادى ، ومن تو ، ومن خواطر الكراتيه المفزعة ، والتي لاتليق برجل فى مثل عمرى ، ان لم يكن فى مثل ثعافتي . فما فائدة أن يقتل تو ، اللواء زهدى لينتقم لابيّه ، هذا معنى بدائى ساذج لن يؤدى الا الى ضياع تو ، ولن يكون ضياعه بسبب مبدا أو من أجل عقيدة ، ولن يترك بضياعه معنى يستفيد منه البشر ، سيكون ضياعا فى جريمة قتل . . حماقة وشر ولا اكثر من هذا . . ان قتل اللواء زهدى لن يصلح البلد ، ولن يحقق العدالة . . ان الامر يحتاج الى عمل ضخم ، يقوم به آلاف ثم ملايين الناس ممن يؤمنون به . . اذن مالذى جلب هذه الخواطر السوداء الى راسى أكون العجز الذى أشعر به عن قدرتي فى مقاومة الظلم وأعمال القسوة والإرهاب فتنتابني هذه الافكار الصبائية عن القتل والافتيال . .

كنت فى سربرى اتقلب ، ولا اثر لقرص الفاليوم الذى ابتلعت ، وابتلعت قرصا ثانيا وثالثا ، ولا أدري متى زارنى النوم .

حاولت أن اعود الى مقهى الشطرنج ، وبذلت جهدا خارقا ، لاجلس الساعات الطوال أراقب اللاعبين ، أو أشارك فى اللعب ، وقد ابتعدت عن اللعب الجاد ، ورحبت بمجموعة من المسنين ، بلعبون الشطرنج لقتل وقت الفراغ ، مستعدين بعض حيويّتهم المفقودة ، بكلمات التحدى والسخرية والشماتة أو حتى الشجار الصاخب مع الخصم الذى يلاعبونه . . ولكن عذابى كان كبيرا ، كنت أدرك انى اعتقل نفسى فى ذلك المقهى . . وكان لابد أن تأتى اللحظة التى أثور فيها على هذا الاعتقال ، فأذهب الى النادى وأخترت أن يكون الوقت مساء حتى لا ألتقى وحدى بتو .

وما كدت أدخل ، حتى علمت أن اللواء زهدى قد أصابته ذبحة صدرية تهدد حياته بالخطر . وفى نفس الليلة ، علمت أن تو ، يقضى الليل فى بيت زهدى . . بينما تلازمه فى الصباح ممرضات يشرفن على تمريره .

كان تو ، يلعب البريدج ، ولم يتبادل معنى كلمة واحدة ، حتى جاءت الساعة الثامنة والنصف ، فنهض ، واتجه إلينا ، ولما رآنى قال لى باسمنا :

— انا ابليغ زهدى بك كل ليلة سؤالك عنه .

واستأذن منصرفا ، وما كاد يبتعد ، حتى قفزت من مقعدى ، وأسرعت الحق به .

استوقفته قائلا :
 - ترى ماهو الميعاد المناسب لزيارته ؟
 قال :
 - الزيارة ممنوعة ..
 سألته :
 - هل حالته خطيرة ؟
 قال :
 - الحالة احسن .. كل يوم يمر يبعد بنا عن الخطر ..
 اخرجت من جيبى ورقة كتبت فيها رقم تليفون منزلى . وأعطيته
 له طالبا منه ان يتصل بى فى اية لحظة من الليل اذا احتاج الى .
 واذا بى أسأله :
 - هل انت حزين من اجله ؟
 قال فى براءة :
 - طبعا ..
 قلت كالمجنون وأنا اظاهر بالحكمة :
 - لا تفسد شبابك بالحزن على العجائز أمثالى .. اعلم ياتو ..
 ان اللواء زهدى هو الذى قتل والدك فى السجن .
 أطرق برأسه وقال هامسا :
 - أعرف هذا .
 نظرت اليه أحاول أن أفهم ، ونظر الى محاولا أن يفهم ، ولم
 يفصح لى ، ولم أفصح له ، واستدار هابطا الدرج فى طريقه الى بيت
 اخنواء زهدى .
 قلت لنفسى : انه سوف يقتله ، ثم قلت : لو فعلها ساكون انا
 قاتله ..

الفصل الأخير

كانت جنازة اللواء زهدى بسيطة وقورة ، وهم فى الاسكندرية لا يشيعون الجنازات بالسير وراء النعوش ، يكتفون بالصلاة على الجثة فى المسجد بعد ان يستمع المعزون الى بعض آيات الذكر الحكيم ، ثم تخرج الجثة بعد الصلاة الى عربة تنتظرها خارج ساحة المسجد ، ووقف اهل زهدى واغلبهم جاء بملابسه الريفية ليصافحهم المعزون وينصرفوا ، لم يكن هناك من يبكى بين الرجال ، ولعل حسن لو كان موجودا لبكى ، وحضر اغلب اعضاء النادى هذا الوداع الاخير ، وبعدها انصرفوا الى النادى ، وأوقفوا لعب البريدج تلك الليلة حدادا على روح المرحوم . ولكن البار استمر فى تقديم المشروبات الروحية . وكان اهم مادار فى حديث الاعضاء فى السهرة ، هو الاستفسار عن حسن ، ومن أرسل له بيلغه ، وهل يجدر بالاعضاء ان يرسلوا له برقيات التعزية ، وما هو عنوانه فى كندا ، أم الأفضل الانتظار لانه لابد قادم ليباشر امور ميراثه .

وماذا يكون مصير الارض لو لم يحضر حسن . وكنت معهم استمع بشغف الى كل التفاصيل ، أما تو فكان قد تركنا . ولم يقل الى اين هو ذاهب ، وقد يكون قد ذهب الى منيرة بيجو ، فالمسكينة كانت شديدة الحزن على وفاة زهدى ، وكان تأثرها واضحا ، وهى التى شهدت اول نوبة للمرض ، ولعلها أقامت بدورها ليلة حداد فامتنعت عن العمل تلك الليلة مثلما منعوا البريدج فى النادى .

وكان هناك امر مثير آخر ، فبين الذى جاءوا الى النادى بعد الجنازة . السفير شكرى منصور ، وكان يدخل النادى لأول مرة منذ أن قاطعه بعد حادث اصطدامه بابنه يسرى ، وقد انهالت عليه عبارات الترحيب من كل جانب ، وكان حادث حضوره ، منافسا قويا لحادث تشييع جنازة الجنرال . وسالوني أكثر من مرة ، كيف مات زهدى ، فكنت أجيب واجما وانا أحرك يدى فى الهواء :
— هذا أمر الله .

كانوا يريدون منى التفاصيل ، ولكنى ضمنت بها ، وكل ماعرفوه منى ، هو انى استخدمت سيارتى السريعة فى احضار الطبيب ، ولكنه وصل بعد قوات الاوان ، فيرد الواحد بعد الاخر ، ما الذى يستطيع ان يفعله الطبيب عندما تحين الساعة . وقال شكرى منصور متحسرا ، ان زهدى أخطأ عندما فاجأته النوبة ، كان راكبا سيارته ، وكان قد وصل بالكاد الى باب عمارته ، ولو كان عاقلا ، لظل مكانه حتى يكتشف احد أمره . وكان لابد ان يحدث هذا بسرعة ولكنه بذل جهدا يستحيل ان يتحملة الكلب المريض ، وهبط من السيارة وسار حتى الباب ، وصعد بضع درجات ، وكل درجة يصعدها كانت تدبح قلبه ، ان اطار الكاوتش عندما يفرغ من الهواء وتسير عليه ولو بضعة أمتار يتمزق ولا يصلح بعد ذلك للاستعمال ، فما بالك بالقلب ، انه من لحم لا من مطاط ، وكل نبضة اقوى من اللازم كانت تهتك صماماته وتلفه ، ومع ذلك واصل زهدى السير حتى باب منيرة بيجو ودق الجرس ولما فتحت له ، ووجدته يلتهت ووجهه أزرق ، خافت . وسندته حتى لا يقع ، ويصبح شكرى . . ان الطبيب يأمرك لو جاءتك الذبحة وانت فى الطريق ان تجلس مكانك على الرصيف لا تخطو خطوة واحدة ، ومنيرة لا تفهم فى الطب ، ولكنها عرفت ان الرجل فى حالة خطيرة . قالت ان يده كانت مثلجة . . العرق الغزير يتصبب من جبينه ، وكان يتنفس بصعوبة . وكان يمسك يديها ويعصرها بشدة توجعها ، كانت قبضته قوية بشكل غريب ، كادت تحطم يد منيرة ، ولم تكن تعلم ان بعض ما تشعر به ، هي الآلام الانقباض التي تعصر قلب زهدى ، وطلبت منه ان يدخل ويستريح ، ولكنه رفض ، ولعله كان يعرف أنه سيموت ، وخشى ان يموت فى بيتها ، كانوا سيقولون ان جنازته خرجت من بيت منيرة بيجو . ولكن من الذى يهتم بهذه الامور امام الموت ، كان يجب ان يدخل ويرقد فورا ولا يتحرك أبدا من مكانه حتى تنتهى الازمة مهما طالт الاسابيع ، ثلاثة اسابيع على الاقل كان يجب ان يقضيها بلا حراك ، ولكنه استجمع قواه وطلب منها ان تساعد فى الصعود الى مسكنه . هل هذا معقول ياناس ، ان موافقة منيرة على طلبه واستسلامها له هو الذى كان فيه القضاء الاخير عليه .

ويستكرى لحظة يسترد فيها انفاسه ، ثم يقول :
 — أنا قلت لمنيرة انها هى السبب . . . قالت لى انها كانت لا تعرف . . وهذه هى اول مرة تواجه فيها مثل هذه الحالة ، ولكن جهلها

وعناد زهدى هما اللذان قتلاه .

وقال سعفان وهو يتلفت حوله :

— من حسن حظنا أن رءوف لم يسمع هذا الكلام .

كان رءوف قد انصرف الى بيته بعد الجنازة مباشرة وكان منهارا ، وهو الذى أصيب بالذبحة مرتين وكان فى الايام السابقة على الوفاة يطمئن الاعضاء ، ويؤكد لهم أن زهدى سوف يشفى ، كان يقولها فى يقين ليطمئن نفسه ، وكان يتهم كل الحاضرين بالجهل فى موضوع امراض القلب ، ويقول أنهم يخلطون بين الذبحة ، واللغظ وتلف الصمامات ، وتضخم الاورطى ، وكان يقرأ المحلات الطبية التى تتناول هذه الموضوعات ، ويعرف كل الادوية ، وتأثيرها ، ومدى فاعليتها ، فلم يجرؤ احد على مناقشته ، ثم تأثروا بكلامه ، فاستسلموا لوهم أن زهدى سوف يشفى وسيعود اليهم ليحى جلساته المرححة البديئة .

وكانوا يسألون تو عن اخبار زهدى ، وكان يطمئنهم ، وقبل وفاته بيومين ، قال لهم : أنهم يستطيعون زيارته ، فجمعوا انفسهم ، وذهبوا لزيارته ، ولم اذهب معهم لانى لم اعلم نبأ السماح بالزيارة ، وقالوا ان زهدى ، كان ضعيفا ، شاحبا ، ولكنه كان مرحا ، ولم يسلموا من طول لسانه ، وطلب من منيرة أن تصعد وتنضم اليهم ، رقصوا ساعتين لم يكفوا فيهما عن الضحك .. حتى صاح فيهم زهدى :

— انتو ياولاد الكلب عاوزين تموتوني من الضحك .

فصاحوا :

— عمر الشقى بقى .

فقال متحديا ، انه لن يموت . وانه بمجرد أن يشفى سوف يتزوج ، وذكر ابنه حسن ، وقال انه يفكر فى أن يرسل للولد برقية يطلب منه الحضور .

واختلفوا فى وصف زهدى وهو يتحدث عن ابنه .. قال شكرى انه كان متأثرا يوشك أن يبكى ، وقال رءوف على ، انه كان ساخرا يشتم ابنه ، وتحدثوا عن الممرضة التى كانت تقضى ساعات النهار مع زهدى ، وتساءل سعفان فى خبث ، اذا ماكان زهدى مات ، لانه حاول مع الممرضة ، واعترفوا بأنها بنت سمراء مسممة ، وان الموت على يديها أو فى احضانها هو الذ انواع الموت ، وذكروا ان رءوف سأل

تو .. اذا ماكانت تلك الممرضة حقيقية ، أم هي ممرضة مزيفة من بنات منيرة ييجو ، واكد له تو أنها ممرضة فى مستشفى الواساة . فاطمانوا تماما الى أن زهدى سوف يشفى حتى فاجاهم الخبر صباح يوم الجنازة . وعرف بعضهم من النادي ، فاتصلوا بالآخرين ، وكان الأهزام لم ينشر النعى . ونشره فى اليوم التالى لتشيع الجنازة ، لان الوفاة حدثت حوالى الرابعة صباحا ، او قبل ذلك بدقائق . فعندما دخلت على زهدى مع الطبيب كانت الرابعة والربع تقريبا وفحصه واستمع الى نبضات قلبه بالسماعة واذنه ، وشك عينه ورفع ساعديه وخفضهما وجس أصابع وبطن قدميه .. قال انه مات منذ حوالى ربع ساعة ، وكان تو واقفا ، فجعل يخط بكفه على فخذه الايمن خبطات متتالية شديدة ، وكانت أسنانه تعض على شفتيه ، اما انا فقد خيل الى انى فى كابوس ، كان جسد زهدى راقدا على السرير فى بيجاما بنفسجية وأزوار حمراء ، وكان يبدو أصفر من المعتاد ، ورأسه مرتفع قليلا ، وعيناه مغمضتان ، وبشرته تميل الى السواد ، والى جانبه كومودينو عليه كميات لا حصر لها من الادوية .. وكان جو الحجرة خائفا رغم أننا كنا فى فبراير والبرد قارس فى الخارج .

وقال لى الطبيب :

— آسف .

وبدا عليه الضيق ، فقد كان متشككا فى جدوى حضوره فى مثل هذا الوقت المتأخر أو المبكر . وخرج الطبيب فتيحه تو ، ولما رأتى أبادر بالخروج معهما سألنى فى دهشة :

— أتركه ؟

قلت :

— وما فائدة البقاء ..

قال :

— لا ادري كيف انصرف .. سأهبط واوقف الست منيرة .

قلت له وانا أفكر فى عدم قدرتى على البقاء وحدى مع الجثة :

— اوقفها أنا ..

سألنى تو :

— اعرفها ؟

اجبت :

— لا ..

قال :

— ساهبط أنا ..

ثم قال محتدا :

— ألم تقل له منذ ساعة أنك تريد البقاء معه .

وأصابني الشلل . كان تو كمن يقرأ مافى داخلى ، يعرف خفايا
واسرار كل الذى جرى فى اعماقى ، وقبل أن افيق كان قد خرج
مع الطبيب ، واغلق على الباب .

لم أجرؤ على العودة الى الحجرة التى يرقد فيها زهدى ميتا ،
وذهبت الى نفس المقعد الذى كنت اجلس عليه وأنا استمع الى حكاياته
التي يرويها ، وقبل أن اجلس عدلت عن رأى ، وذهبت الى النافذة
وفتحتها ، اطل على مدينة الملاهي بمراجيحها والعابها ، ولكن لفحة
برد قوية جعلتنى اسارع باغلاق النافذة .. وجلست استريح .

منذ ساعة واحدة كنت هنا فى نفس المكان ، وكان زهدى مازال
حيا . والان انتهى كل شيء ، وبقي أن استريح ، لم اكن حزينا
لموته ، وبدا لى أن كل ما يحدث حولى ليس حقيقيا ، وأنه خيال
يدور فى عقلى ، خيال صبيانى مريض ، ولكن الجثة الراقدة فى الغرفة
المجاورة كانت تدحض اية محاولة للهروب من الواقع ، ان ذلك الجسد
الميت هو الشاهد الحى الذى يواجهنى رغم أنى لا اراه . واجلس
وبينى وبينه جدار . وتبينت فى تلك اللحظة ، انى عندما عدت
من النافذة جلست على المقعد الذى كان زهدى يشغله وهو يروى
لى حكاياته . وكدت أقوم . ولكنى شعرت بثقل ، وواصلت جلوسى ،
وتشاءت فى انتظار قدوم تو ومنيرة . لم اكن خائفا ، وكنت اقرب
الى البلادة .. ورغم شدة الاحداث ، كنت بعيدا تماما عن الانفعال ،
بل مسترخيا كان شيئا لم يحدث ، أو كانى احلم وأنا نائم فى سرير
وثيم . .

كان التليفون قد دق فى بيتى ، وكنت جالسا اقرا . فمن عادتى
ان اواصل السهر فى القراءة أو الكتابة أو مراجعة ادوار الشطرنج
أو الاستماع الى الموسيقى الكلاسيك حتى الرابعة أو الخامسة
صباحا .

لقد اكتسبت عادة السهر من عشرات السنوات التى قضيتها فى
أعمال صحفية ، والان وقد تفرغت للكتابة لازمتنى هذه العادة ،
وأصبحت جزءا من روتين حياتى ، وعندما سمعت جرس التليفون
بدق كانت الساعة حوالى الثالثة ، لم أتردد للحظة واجهة فى الجزم

بان تو هو الذى يطلبنى . رغم أنه لم يحدثنى أبداً من قبل ، ولم أتعود أن أبادل المحادثات التليفونية مع أعضاء النادى ، صلتى بهم لا تعدو اللقاء فى النادى ثم أنساهم وينسونى ، ولم يحاول زهدى أن يطلبنى فى التليفون ، ولو كان حاول لوجد صعوبة كبيرة فى الحصول على رقم تليفونى فقد احتفظ به سرىا ولم أسمح بتسجيله فى دفتر التليفونات ، وأنا أعرف عنه الحذر ، كان يقول لى ، أن الذى عرفه أيام عمله فى الشرطة ، يجعله يشك فى الحديث ولو همسا فى أى مكان عام ، ويشك فى أى حديث فى التليفون ، كان يؤكد لى أنه لا يستخدم التليفون الا عند الضرورة ولا يثرثر بأى كلام لا لزوم له ، وأن هذه عادة اكتسبها من عمله ، مثلما اكتسبت عادة السهر من عملى .

سمعت صوت تو ملهوقا :

- لا مؤاخذه يا استاذ .. زهدى بكّ تعبان جدا .

صحت :

- ياخير .. اتصلت بدكتور .

قال :

- حاولت ولكنه لا يجيب .. فكرت فى أن عربتك سريعة ، وتستطيع أن تمر عليه اختصارا للوقت ، وتحضره .

قلت :

- سافعل فورا ..

وأعطانى العنوان ، وكتبته ثم قرأته عليه ، كان الطبيب يسكن فى شارع الفراغة ، وقدرت أنى فى أقل من نصف ساعة سأكون مع الطبيب عند زهدى . ووضعت السماعة ، وانطلقت ارتدى ملابس الخروج ، أى ملابس تصادفنى . معتمدا على الباطو الذى يستر كل شئ ، وهبطت الى الجاراج أسفل العمارة . ومن حسن حظى أن سيارتى كانت فى المقدمة ، واحتاج الامر الى زحزحة سيارتين من مكانهما ، ولم أنتظر السائيس الذى استيقظ بفرك عينيه وقد وجدنى أقوم بالمهمة غير مكثر بوجوده . وانطلقت بالسيارة بأقصى سرعة حتى وصلت الى شارع الفراغة . ودسست يدى فى جيبى لاخرج الورقة التى دونت فيها العنوان فلم أجدها ، وارتبكت ، أوقفت السيارة وفتشت كالمجنون فى كل جيب ، فلم أعرثر عليها ، ولم أستطع التفكير ، كل ما فعلته ، هو أن انطلقت بالسيارة الى بيت زهدى .

صاح تو :

- ابن الطبيب ؟

قلت لاهثا :

- العنوان .. الورقة ضاعت ..

قال وهو يجرى الى حجرة زهدى :

- ساحضره لك .

وتبعته الى الحجرة ، كان زهدى راقدًا وقد رفع رأسه فوق
مخدات عالية ، وكان فى وجهه ألم ، وفى عينيه شبه ذهول ، ولكنه
ماكاد يرانى حتى عرفنى فقد تحرك سواد عينيه وابتسم ابتسامة
شاحبة .

قلت فى لهفة :

- سلامتك .. سيأتى الطبيب فوراً .

وفجأة سيطرت على تلك الهواجس الغريبة التى كانت تأمرنى
فاطبع . واذا بى أقول لزهدى وأنا أنظر فى عينيه :

- ابقى أنا معك يا زهدى .. ويذهب تو الى الطبيب .

لأبد أن نظراتى كانت تحمل اليه معنى كامناً فى نفسى ، اذ كان
يحدق فى عينى ، وفجأة ، لمحت شهاب القلق يلعب فى عينيه ، ونظراته
تضطرب ، بينما صاح تو :

- كيف اذهب أنا ؟

قلت له وأنا أمد يدي بمفاتيح السيارة :

- خذ السيارة ..

قال :

- لا أعرف كيف أقودها ، سرعاتها خاصة ، وليست لى خبرة

بها . . .

وهنا حرك زهدى يده متمتما ، ولم أسمع ، ولكن تو سمعه ،
واذا به يصيح :

- لا يا زهدى بك .. هو الذى يذهب ، سأبقى أنا .

كان تو حاسماً ، ورأيت الخوف يزداد فى عينى زهدى ، وأصابعه
المرتعشة فى يده الممتدة نحوى تكاد تدعونى بل تتوسل الى البقاء ،
ولكنى لم ألتفت اليه .. وصحت :

- لا يجب أن نتعطل أكثر من هذا .

وعدت الى سيارتى ، وذهبت الى بيت الطبيب ، وعندما عدنا ،

كان زهدى قد فارق الحياة .

فتح الباب ، كان مع تو مفتاح الشقة ، وقال ان منيرة فى حالة

سيئة .. وانها شرعت فى اجراء بعض اتصالات تليفونية ، فى بيوت اقارب لزهدي تعرفهم ، وجلس تو فى مواجهةى ، ورفع عينيه ناظرا الى ، وقال لى بصوت غريب :

— أنت الذى قتلتته يا استاذ « قتلتته بكلمتين » .

قلت فى استرخاء كامل :

— اجننت ياتو ..

قال :

— أتدرى ما الذى حدث ؟

قاطعته بلهجة اتهام :

— كان وحده معك ، وانت الذى اتصلت بى ..

قال تو غير مهتم بما اثره من اعتراضات :

— منذ اللحظة التى قلت له أنك تريد البقاء معه وذهابى ، انتابتة المخاوف منى ، أتدرى انه حاول النهوض من السرير ليلحق بك ، قام فعلا ، وكلما اقتربت منه ، دفعنى بشدة ، كان مدعورا ذعرا بشعا ، لم اعرفه فى انسان من قبل ، كانى عزرائيل ، ولولا أن أزمته شديدة ، لكان هجم على وحاول قتلى ليتخلص منى ، كأنك قلت له انى سوف أقتله ..

صمت :

— مستحيل .. ماهذا التخريف ياتو ؟ !

قال فى تأكيد وحسم لايقبل المناقشة :

— أقسم لك أن هذا هو ماحدث .. لم يكثرث بالازمة ، ولا بما يعانيه من الآلام ، ولم يكثرث بكلام الطبيب ، ونهض ، وهو يعلم أنه يقضى على نفسه بأى حركة .. وحاول أن يذهب الى باب الشقة ويخرج منها .. ولكنه ماكاد يقف على قدميه .. ويمد يده يدفعنى ، حتى أنهار ، وأرقدته على السرير ، وكان ينظر الى فى فزع . ولم اجد مفرا من الخروج من الحجرة ، وكلما أطلت عليه من الباب رأبته ينظر فى اتجاهى منكمشا خائفا ، فاخفى ، ثم اعود فاطسل بحذر ، فيلمحنى ، وفى آخر مرة ، صرخ ، ثم شهق .. فصحت فيه من الخارج .. أن يطمئن ، وأن الطبيب قادم بسرعة .. وظللت اتحدث ، ثم أطلت برأسى ، فلم أسمع له صوتا ، واقتربت منه ، فوجدته هامدا ، لا صوت له ، أو شخير أو شحير . كان متصلبا .. ومازالت فى عينيه نظرات الفزع ، انها مازالت فى عينيه ، ألم تلاحظها عندما فتح الطبيب جفونه ، رأيتها باقية كها هي ، لا اعرف كيف لم

بلاحظها الطبيب ، انها نظرات مخيفة لم احتملها فأغمضت جفونه ،
وعلمت أنه مات .

همست :

— هذا غريب ..

قال تو فى اصرار :

— انت السبب ..

همست :

— لا داعى للاستمرار فى هذا التخريف .

قال :

— لقد وضعتنى فى موقف لا يحتمل .

رفعت صوتى :

— أما زلت مصرا ؟

قال تو :

— انا واثق مما أقول .. ولكنى لا افهم لماذا ..

والتفت الى والقى بسؤال :

— اكنت تريد منى أن أقتله ؟

هتفت فرعا :

— مستحيل — وما فائدة مثل هذا التصرف الاحمق .

قال تو فجأة :

— على أية حال أعدك بأنى لن أحدث أحدا فى هذا الموضوع .

حاولت أن افتح فمى ، وأقول له .. لن يصدقك احد ، لو اتهمتنى
فستدور الاتهامات عليك أنت ، لانك ستفضح نفسك ، وسيعلمون
أنك ابن الرجل الذى مات على يد زهدى فى السجن .. حاولت أن
أخيفه ، أو أخدعه ، ولكنى لم أنبس بكلمة .. وبعد لحظات ضربت
بيدى على مسند المقعد ونهضت . وغادرت المكان دون أن أقول لتو
كلمة واحدة ، ولم يقل لى كلمة واحدة .

هل أنا قاتل زهدى .. هل هذا معقول .. لقد كان الرجل
يتوقع أن يدبر له تو شرا ، صارحنى بأنه يخشاه ، ألم يكن يخشاه ،
ألم يقل لى أنه تعلم من مهنته أن يتوقع كل الاحتمالات ولا يستبعد
أحدا منها ، ما أدرانى أن تو يكذب ، وأنه هو الذى انتهر الفرصة
وهجم على زهدى وهو يعانى فى أزمة ، وجعل يهزه ويخيفه حتى
قتله ، انها جريمة من الصعب اكتشافها ، سيقدر كل أطباء العالم
أن الرجل مات بقلبه المريض ، أن رسوم القلب التى أجروها له تؤكد

ان العطب موجود وشديد . وانه قلب لا يصلح .. لقد كان تو ماكرا بما فيه الكفاية ، الم يحدثنى فى بداية لقائى به عن رغبته فى ان يقول كش مات لخصومه . ومن هم خصومه المباشرون فى هذه الحياة غير زهدى وشوكت ، اغلب ظنى ان شوكت لو كان مازال حيا لابد ان يقابل تو فى جنيف او حيث يكون ليلقى على يديه انتقاما من نوع آخر فريدا فى نوعه .. لا .. لن اسمح لتو ان يهزا بى ، ويتهمنى بارتكاب الجريمة التى ارتكبها هو . ولكن هل انا واثق مما اقله ، ليس من المحتمل ان زهدى هو الذى انهار ، امام مخاوفه التى كان يستبعدا مرضاة لله . كان يتبنى تو ليرضى الله عن ابنه ، ويفتح أمامه السبل ولكنه وهو يواجه الموت لم يعد يعنيه الا نفسه ، وأحس ان الله يتخلى عنه ، فخاف وهجمت عليه الوسوس كالشياطين الفتاكة قدمرته .. كان يحمل جرثومة هلاكه فى نفسه ، وهى التى قتلتة ..

ومع ذلك ، فما زالت صيحة تو .. « قتلتة بكلمتين » تدوى فى اذنى ، لقد كانت قوى اكبر منى ، تكمن فى أعماقى ، هى التى دفعتنى الى ان اعرض على زهدى البقاء معه ، وانظر اليه ، وهو فى قمة ضعفه ، لا قول له انى خائف مما قد يتعرض له من بقاءه وحده مع تو .. بل لعلى قلت له بنظرائى وأنا لا أعى خطورة ما أقول .. ان سبب ما يعانى من نكسة ، هو تصرفات لتو ، لعله خلط فى الادوية ، او ارتكب شيئا ضارا به .. لقد حذرته ونبهته الى مخاوفه فى اللحظة التى لا يستطيع ان يدافع فيها عن نفسه ، فانهار ومات او انتحر .. ولكنى أعود وأسأل نفسى .. هل هذا معقول .. الم يطلبنى تو بنفسه ما الذى دفعه الى مخاطبتى فى التليفون .

عندما اختفى النعش فى السيارة الكبيرة السوداء ، التى ستحمله الى مقره الاخير كان تو يقف بجواره ، كنت لم أره منذ تركته فى فجر اليوم .

نظر الى وقال :

— أنا آسف .. لا تزعل منى ..

فمددت يدي وريت على كتفه . ولا بد ان من راونى ظنوا انى أواسيه فى موت أبيه زهدى ، كان اصفر الموجودين . وكان يصلح لان يبدو فى نظر عابرى الطريق الذين ينظرون الينا فى فضول كابين المتوقفى .

وهمست فى اذنه :

— كيف عرفت أنه قاتل والدك ؟
قال هامسا بدوره :
— بعد التوبة الاولى .. اعترف لى .. وبكى ..
سألته :
— وماذا فعلت ؟
فلوح بيده ودموع قى عينيه .. وقال :
— بكيت ..
وانطلق مبتعدا .. يعبر الطريق فى اتجاه بيت زهدى القريب
ن المسجد .
واختفى تو ، بعد الجنازة ، ولم يعد الى النادى ، وانقطعت أخباره
لم يحضر ليقبض مكافأته الشهرية .. ورأيته أخيرا ، فى شوارع
سقىة زغلول . وكنت على الرصيف الآخر .. فناديت عليه بأعلى
سوتى .. واكتفى بتحيتى من بعيد .. أشرت له أن يقف . وجاء
سوته معتذرا .. وهو يجرى .
— عندى موعد هام فى فندق فلسطين .

تمت

اشترك سنوى فى

روايات



الاشعار

●●● ١٢ عددا فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات
ثلاثة عشر دولارا

●●● ١٢ عددا فى اتحادى البريد العربى والافريقى
والباكستان عشرة دولارات او مايعادلها (بالبريد
الجوى)

●●● ١٢ عددا فى انحاء العالم - ٢٠ دولارا (بالبريد الجوى)

- تسدد القيمة مقدما لتسليم الاشتراكات مدار الهلال فى ح م ع نقدا او بحواله بريدية غير حكومية
وفى الخارج بشيك مصرفى لأمم مؤسسه دار الهلال وتضاف اليها رسوم البريد الممجل على الايصال
انموضحة اعلاه عند الطلب

قسمة الاشتراك

الاسم: _____

المهنة: _____

العنوان: _____

رقم الايداع : ٨٧/٨٢٧٧

الترقيم الدولى : ٨ - ٣٣٣ - ١١٨ - ISBN٩٧٧

روايات الهلال تقدم

الشمس العارضة

تأليف :
إسحاق عظيموف

ترجمة :
محمد جلال عباس

تصدر : ١٥ يناير ١٩٨٨

الكويت: السيد 'عبدالعال بسيوني زغلول

الصفاء - ص . ب رقم ٢١٨٢٢

13079 - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

اشترى
في
روايات
الهلال

هذه الرواية

« وعدت أنظر في اتجاه « تو » ، وفي صدرى مشاعر مختلفة من الفضول والحذر ، وأنا أحاول أن أجد فى مظهره ما ينبئنى عن حقيقة مخبره ، وإن كنت أعلم أن مثل هذه المحاولة ميثوس منها ، وجعلت أفكر فى هذا الوضع الشاذ الذى يتعرض اليه « تو » ويقبله ، فهامو يبدو ، أو يتظاهر ، وكأنه أحد الأعضاء ، وهامو يختلط بالشبان الذين هم من طبقة اجتماعية أخرى غير طبقته ، ومع ذلك فالجميع يعرفون حقيقة وضعه .. وهو أنه ليس منهم .. وأنه ليس عضوا ، بل موظفا وأجيرا عندهم .. هل مثل هذا الوضع الغريب يصلح لرجل مخابرات ؟ لاأظن ، ومع ذلك فالامر غير مفهوم تماما ، إذ لماذا يقبل « تو » هذا الوضع ، وهل هو مضطر اليه ، أو هو يعتمد أن يكون كذلك لغرض فى نفسه ، وخطر لى أنى ربما أكون قد ظلمته بهذه الهواجس ، فقد يكون واحدا من ذلك الشباب الغريب الذى لا نستطيع أن نفهمه نحن أبناء الأجيال الماضية ، نعله واحد من تلك الطيور الغريبة التى تشق طريقها فى الحياة بوسائلها الخاصة المبتكرة التى لا تخطر على بال أمثالنا .. أكون الحياة قد دفعت به الى هذا المكان كمحطة يستريح فيها بعض الوقت ، قبل أن يطير الى مكان آخر يحط فيه . حقا أن هذا النادى أشبه بالمحطة ، بعض من فيه كهول ينتظرون القطار المسافر الى الحياة الأخرى ، وبعض من فيه شباب يتسكع فى انتظار قطار مسافر الى فرص أوسع فى الحياة . على أية حال ، قررت بينى وبين نفسى أن أحذر من « تو » ، وأن أتعامل معه بحرص إذا شاعت الظروف أن نلتقى ولابد أن هذه الظروف سوف تنهى يوما ما .